مشهـــد علـــم النفـــس فـــي الســـودان فـــي نهايـــة الألفيـــة

أ. د. عمـــر هـــارون الخليفـــة، مؤسـس مشـروع طائـر السمبـر، السـودان
د. إنعـــام علـــي أحمـــد، جامعـــة أم درمـــان الاسلاميـــة، السـودان

okhaleefa@hotmail.com

رؤى حول تاريخ علم النفس

يمكننا التساؤل بصورة مباشرة في مقدمة هذه الدراسة لماذا بعد مرور أكثر من نصف قرن من الزمان لم يكتب بعد تاريخ علم النفس في السودان؟ ولماذا لم تقدم أي رؤي في كيفية تطور علم النفس من خلال بنياته وهياكله؟ ولم تقدم مناظير حول توطين المفاهيم والنظريات والمناهج في التربة المحلية؟ تحاول الدراسة الحالية الاجابة على هذه الأسئلة من خلال تصوير مشهد علم النفس في السودان في نهاية الألفية ومعرفة درجة تأثير هذا المشهد في علم النفس في بداية الألفية. وربما يمكن التساؤل كيف يمكن النظر لهذا المشهد للاجابة على الأسئلة المطروحة؟ هناك نظريتان في كيفية تصوير مشهد علم النفس هما النظرية الطبيعية والنظرية الشخصانية (Boring, 1957)، أو النظرية الديالكتيكية والنظرية الاستاتيكية (الخليفة، 2009). ترتبط النظرية الطبيعية أو الاستاتيكية بالتطور أو النمو الطبيعي لمشهد علم النفس في التربة المحلية. وربما يتم التساؤل هل كان تطور علم النفس ونموه طبيعيا في نهاية الألفية وهل تهيأت التربة المحلية لذلك التطور الطبيعي؟ بينما ترتبط النظرية الشخصانية أو الديالكتيكية بوجود علماء نفس لهم مساهمات مشهودة أو مقدرة يعجلون عملية تطور علم النفس في التربة المحلية. وربما يمكن القول بأن علماء النفس العظام هم مجرد أدوات أو وكالات لتطوير مشهد علم النفس في النظرية الطبيعية أو الاستاتيكية. وفقا لهذه الرؤية سوف نحاول النظر لمشهد علم النفس من خلال معرفة "ماضية" فضلا عن معرفة "تاريخه" وبين الماضي والتاريخ سوف ننظر للخطوات الصغيرة في بنيات وهياكل علم النفس في تطورها الطبيعي في التربة المحلية كما ننظر للقفزات الكبيرة التي يقوم بها بعض الأفراد في اسراع عملية الخطى لتطوير علم النفس. وبعبارات ثانية سوف ننظر لمشهد علم النفس من خلال شكل هضابه فضلا عن كيفية ارتفاع هذه الهضاب بتبصرات عظيمة مشهودة لعلماء النفس أو عن انخفاض هذه الهضاب في حالة حدوث انحطاط لبعض المساهمات بسبب تدني التبصرات أو الأخلاقيات.

قد يكون هناك اختلاف أو جدل في كيفية النظر لتاريخ العلم هل تتم عملية النظر لهذا التاريخ من خلال فترات تاريخية أم من خلال أفراد لهم أدوار كبيرة في الممارسة العلمية أم من خلال الفترات والأفراد. وفي الدراسة الحالية، سوف يتم النظر لتاريخ علم النفس من خلال تطور أفرعة وموضوعاته من زاوية، ومن زاوية أخرى يتم النظر لمراحل التطور من خلال حقب قصيرة المدى. وربما نفضل في هذه الدراسة النظر لتاريخ علم النفس في شكل عقود وذلك لأن تاريخ علم النفس في السودان بصورة عامة عمره قصير ولهذا السبب يمكن تجزئة هذا التاريخ لحقب تضم كل منها عقد أو فترة 10 سنوات. وفي داخل هذه الحقب يمكن تصوير المساهمات الفردية المشهودة وكذلك التطورات البارزة بالنسبة لهياكل وبنيات علم النفس من خلال عمليات التأسيس لأقسام علم النفس، والتطورات المهمة لفرع من فروع العلم خاصة القياس النفسي، وحركة تكييف وتقنين الاختبارات السيكولوجية. وفيما بعد سوف نعرض خلاصة عامة لوصف مشهد علم النفس والدروس المتعلمة من هذا التاريخ.

بوسعنا القول بأن هناك 6 تطورات في تاريخ مشهد علم النفس في نهاية الألفية. ولقد اخترنا في فترة ماضي علم النفس كاتب الشونة وودضيف الله، ليس كعلماء نفس، وإنما كمؤرخين لمرحلة مهمة من مراحل تاريخ السودان وعوضا عنهما كان يمكن التعبير عن روح علم النفس في ذلك العصر بحسن ود حسونة، وفي فترة الخمسينيات ماقبل استقلال السودان كان التركيز على مساهمة سكوت في مجال القياس النفسي، وفي الستينيات باعشر في علم النفس الطبي، وفي السبعينيات مالك بدري في ريادته لحركة أسلمة علم النفس، وفي الثمانينيات الزبير بشير في ريادته لحركة تفكيك النصوص السيكولوجية في التراث الاسلامي، وفي التسعينيات تم اختبارنا لتأسيس بعض بنيات وهياكل علم النفس المشهودة. وغير هذه الأسماء أو الشخصيات التي تم اختيارها للتعبير عن روح كل عقد من عقود علم النفس هناك مساهمات كثيرة ومهمة لآخرين في علم النفس وفي موضوعات متباينة يجب التأكيد عليها ولكن أثرنا أن نؤرخ لكل حقبة أو عقد بأكبر عملية تأثير في مشهد علم النفس في السودان. وهذه العملية من الاختيار لا تنفي المساهمة العظيمة التي قدمها بعض علم النفس في تطوير بنياته وهياكله.

ماضـي علـم النفـس في السـودان: ود ضيـف اللـه نموذجـا

عموما ليست هناك بداية محددة لمشهد علم النفس ولكنه قديم كقدم وجود الانسان في الرقعة الجغرافية المسماه بالسودان. وربما يمكن القول بأن بداية مشهد علم النفس في السودان لها ماضي طويل وتاريخ قصير. يرتبط الماضي الطويل بوجود الأفراد والجماعات في البيئة المحلية في الحقب التاريخية المختلفة القديمة من حضارات كرمة ونبتة ومروي والحضارات النوبية المسيحية فضلا عن الحقب الحديثة من السلطنة السنارية، والحكم التركي المصري والمهدية وفترة الاستعمار والاستقلال وما بعد الاستقلال. فمن ناحية علاجية، يرتبط الماضي الطويل بالممارسات التقليدية في التراث الشعبي والديني في هذه الحقب المختلفة وبتأثيراتها الفرعونية والكوشية والمروية والمسيحية والاسلامية وبمساهمة المعالجين كالشيوخ في الخلاوي والمساجد والتي مازالت قوية لقطاع كبير من السكان في القطاع التقليدي من المجتمع0 ومن بين هذه التأثيرات ممارسات الظار بأنواعه وطقوسه المختلفة في الشمال السوداني، ومساهمة الكجور في جبال النوبة، والمعالجين التقليديين في مختلف القبائل في جنوب السودان وفي منطقة الأنقسنا. ومن بين سمات هذه الممارسات العلاجية سمة التعاون والتي تتطلب نوع من الاتصالات ولهذا السبب بدأت عادة التجمعات لهؤلاء المعالجين لتنظيم مهنتهم بتكوين اتحاد شيوخ الظار بالخرطوم، والجمعية الروحية السودانية، ومراكز العلاج أو التداوي بالقرآن والرقية.

وتعمل هذه التجمعات على النقاش وتبادل الأفكار وترقية الممارسات العلاجية الشعبية. وغالبا ما ترتبط وسائل التشخيص والعلاج النفسي بالمفاهيم الاعتقادية والغيبية وبالكرامات والبركة. وهناك اتفاق عام بين المعالجين، وعلى الأقل بالنسبة للشيخ أو الفكي، بأن "الجنون" مركزه في رأس أو مخ الانسان. وربما يشك الكثيرون في طبيعة العلاقة بين التشخيص الشيطاني للمرض النفسي وطرق العلاج المستخدمة فيه من الضرب والمحاية والتعاويذ. وتعتبر أنشطة هذه التجمعات مهمة بالرغم من عدم قبولها في الأوساط العلمية الكلاسيكية بسبب المنهج الذي تستخدمه في العلاج. وإلى هذه اللحظة لم يتم نفي مفاهيمها ونظرياتها بصورة كلية أو قاطبة لأنها جزء من نظام الاعتقاد الشعبي. ولهذا السبب مازال العلاج الشعبي يحظى بدرجة تأثير كبيرة في القطاع التقليدي من المجتمع خاصة في الريف والبادية السودانية وقاع المدينة. وتقول احصائيات المجلس القومي للبحوث بأن نسبة المترددين على خدمات العلاج التقليدي بما فيها العلاج النفسي حوالي 89%، وبذلك يمكن القول بأن نسبة المترددين على خدمات العلاج الحديث في المدن حوالي 11% (باب الله، 2004). وهناك تسميات كثيرة لهذا النوع من العلاج في طرائق التصنيف الحديث مثل الطب الشعبي، العلاج الشعبي، الطب البديل، العلاج البديل، ولكن في التصنيف الشعبي للمرض يسمى بعلاج الفقراء.

إن ماضي علم النفس تاريخه طويل لذلك السبب يصعب تحديد تاريخ محدد بالنسبة له ولكن بصورة عامة يمكن مثلا تحديد علاج الفقراء أو العلاج الديني وعلى الأقل بالنسبة للمسلمين في شمال السودان بدخول الاسلام خاصة الصوفي منه. وربما يمكن القول من ناحية تاريخية ببداية السلطنة السنارية التي بدأت بها عملية توثيق الكثير من تاريخ المشايخ والطرق الصوفية خاصة في كتاب طبقات ود ضيف الله (1992) وهي أول مخطوطة بها معلومات مكثفة عن أولياء الله الصالحين بالاضافة لمخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية (أبوعلي، 2009). بدأ ظهور التدوين للحالات المرضية في العصر الذهبي للسلطنة السنارية في القرن السابع عشر والقرن التاسع عشر لأن هذين القرنين تضمنا كبريات كتب التراث والتاريخ السوداني التي مهدت الطريق أمام تصوير مشهد علم النفس. ويمكن لعلماء النفس التنقيب في هاتين المخطوطتين في ملامح ماضي علم النفس العلاجي، وعلم النفس المرضي، وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الاجتماعي، وعلم النفس السياسي، والباراسيكولوجي وهو ما يمكن تسميته بعلم النفس الرخو (Soft) مقابل علم النفس الصلب (Solid). وذكرنا كلمة "ملامح" وكلمة "ماضي" وذلك لأن تاريخ تأسيس علم النفس الغربي كان على يد فونت بألمانيا بمعمله الشهير في لايبزج عام 1879 (الخليفة، 2001) وكانت مساهمة ود ضيف الله وكاتب الشونة قبل ذلك التاريخ.

أما إذا أرخنا لملامح ماضي علم النفس في التراث العربي الاسلامي يمكن أن نرجع للقرن الحادي عشر الميلادي خاصة مساهمات ابن الهيثم في "كتاب المناظر" ومساهمة ابن سينا في "كتاب القانون" و"الشفاء" بصورة خاصة. ويمكن أن نتتبع موضوع الكرامات في مخطوطة كاتب الشونة التي كتبت حوالي عام 1838 وتوجد منها عدة مخطوطات منها مخطوطة تاريخ مدينة سنار، ومخطوطة استانبول ومخطوطة فينا، ومخطوطة باريس ومخطوطة لندن. وقام بجمع وكتابة المخطوطة أحمد بن الحاج أبوعلي (أبوعلي، 2009) المعروف بكاتب الشونة وقام بتحقيقها الشاطر بصيلي ومراجعتها بواسطة محمد مصطفى زيادة. وكان كاتب الشونة موظفا بالديوان في الخرطوم حتى عام 1834 وأنهى كتابه بعد ذلك التاريخ بأربع سنوات 1838. وعاش كاتب الشونة في القرن التاسع عشر وهو القرن الذي بدأ به تاريخ علم النفس الحديث وأنهى تدوين الحالات التي وثقها قبل 41 سنة من تأسيس معمل فونت بلايبزج عام 1879. ويمكن لعلماء النفس قراءة المخطوطة وعلى الأقل ماذكر فيها من كرامات بالنسبة للشيوخ وربطها بموضوع البركة كمكون هام من مكونات علم النفس الوطني (Indigenous psychology) أو الشخصية السودانية (Sudanese personality) في السودان. وسوف نعرض في الفقرة اللاحقة ما أرخه كاتب الشونة من كرامات وخوارق الأعمال ، وأوصاف سيكولوجية دقيقة لبعض الحالات المدونة التي تحتاج للانتباه من قبل علماء النفس لمعرفة مكونات أو جذور الشخصية السودانية .

يحكي كاتب الشونة عن فترة حكم بادي الأحمر في السلطنة السنارية "وهو الذي ظهرت في زمنه كرامات الوالي الصالح الشيخ حمد ولد الترابي (جد الشيخ حسن الترابي)، قيل: أنه بمكة المشرفة أرسل تلميذه ميرف، وقال له قل: المهدي نزل، فجاء في مده المك المذكور وفعل ما أمر به شيخه، فقبضه المك وقتله فأنزل الله عليهم مطرا شديدا من غير أوانه، وجرت السيول وانهدمت البيوت، وظهر من أثر المطر خور أم خنيجير المعروف الآن لأنهم جروا فيه جنازة ميرف وأرادوا به مثلته ، فأرسل الله تلك الأمطار فحالت بينهم وبينه، ومنها كرامته المشهورة مع ولد التهامي والمقادير ومن معهم من الحراب، فظهرت فيهم خوارق العادات حتى أن المك المذكور أرسل اليهم وحبسهم أن لا يدخلوا سنار إلا بعد إن يأخذ الشيخ منهم حقه، فمنهم من مات في البلادات من البرد ومنهم من حاض كالنساء، وأما ولد التهامي فمات ولم يوجد له رأس (ص. 39-40). ويحكي كاتب الشونة وصفا سيكولوجيا معبرا عن السلطان بادي الذي "كان له حصان يقال له: الزباوي فطلبه فعرض له وركب عليه وحصلت له زبادة وقشعريرة، لقد حلف الذي رآه وتكلم إن لحيته كل شعرة منها وقفت على حدة، وجسده صار طرطور، يعني اقشعر وصار له ورنا كالدماميل (ص. 49). ويحكي كذلك كاتب الشونة بأن "إمراة تسمى زاهرا طلبت من الحاج محمود أن يرها الشيخ حسن ولد حسونة، فقال لها الشيخ: ميت أيقوم الميت، قالت له الشيخ قالوا يحي الميت أرنا أنت شيئا، فعمد على حوتة ميتة منذ يومين، وقال لهم إيتوني بماء فأتوه به قدح، فوضع فيه تلك الحوتة، فصارت تتحرك فيه، فقال لها هكذا. ومن كراماته ، أن أخاه الذي هو أكبر منه، لما حصلت عليه الحالة قبضه ورمى فيه مكية حديد، فقام بها ذات يوم إلى البحر ورأي تمساحا بالرملة، فأخذ المكية بيده

ورماها في البحر، ووقع ورقد مع التمساح، فصاح له أخوه وقال له ثاني لا أقول لك شيئا، فدخل البحر وأخذ المكية ورجع فلم يعارضه بعد ذلـــك (ص. 52-53).

أما مساهمة ود ضيف الله وهي أكثر غناءا من مساهمة كاتب الشونة فإنه الفقيه محمد النور بن ضيف الله بن الفقيه محمد بن الفقيه ضيف الله . وإلى ود ضيف الله ينسب الضيفلاب بمنطقة حلفاية الملوك وفرغ المؤلف من تأليف "كتاب الطبقات" وعمره 26 سنة. ويعرض الكتاب 270 ترجمة تشمل سير الأولياء والفقهاء والقراء وقلة من الخطباء والقضاه. ويحتوي عرض السير الذاتية على تفاصيل عن حياة الشيخ ومكان مولده، ونسبه لأبيه وأمه، والعلوم التي درسها، وأسماء أساتذته والشيوخ الذين أخذ عنهم طريق القوم، ثم أسماء التلاميذ والمريدين الذين أخذوا عنه، وأسماء الكتب التي اطلع عليها أو ألفها، ويذكر أيضا ما نسب للمترجم من كرامات وخوارق عادات. واعتمد ود ضيف الله في كتابة طبقاته على نوعين من المصادر هي الروايات الشفهية والمصادر الخطية. ويبدو الكتاب في كثير من أخباره وقصصه كأنه شريط مسجل تتحدث فيه الشخصيات على سجيتها دون أن يقدمها المؤلف بل يكتفي بذكر الاسم الذي اشتهرت به . وتوفي ود ضيف الله في مجاعة أم لحم عام 1684 (حسن، 1992) قبل 195 سنة من تأسيس معمل فونت بألمانيا عام 1879. ويقرر ماكمايكل (حسن، 1992) بعد مقارنته الطبقات ببعض الكتب وأشجار النسب التي توفر على دراستها بأن ود ضيف الله كان أمينا دقيقا في تسجيل الحوادث التاريخية وأنه قل أن يخطيء فيما يذكره.

تطرق كتاب الطبقات للدور المهم للشيوخ، وفقا لحسن (1992)، الذين يمثلون قوة روحية ذات سلطان عظيم على النفوس ، كما كانوا مصدر خير للضعفاء والفقراء يحمونهم من غدر الحكام وظلم السلاطين، وملاذا يلوذون به عند كل نازلة. وبناءا على ذلك الاعتقاد التف حولهم الأتباع والمريدون يلهجون بحمدهم ويضفون عليهم الكرامات وخوارق العادات بل بالغ بعض الأتباع حتى ظنوا أن مشايخهم قادرون على ابراء المرضي بالتعاويذ والرقي واحياء الموتى والاخبار عن عالم الغيب وأن لهم قدرات فوق طاقات البشر. وسوف نحاول التطرق بشيء من التفصيل لبعض حالات الكرامة وشفاء المرضي في كتاب الطبقات. لقد عرض ود ضيف الله كثير من الكرامات لأولياء الله الصالحين منهم على سبيل المثال لا الحصر ابراهيم بن عبودي المشهور بالفرضي والذي ظهرت له كرامات وخوارق عادات (ص. 79)، ويحكى أن طلبته قالوا له: ياسيدي نطلب منك تورينا الطيران في الهواء فطار بعنقريبه بالهواء والناس تنظر كذلك ثم نزل في محله (ص. 83). ووقعت كرامة عظيمة للشيخ ابراهيم ولد بري مع ادريس ولد سليمان ملك السعداب (ص. 97-98)، وللشيخ ابوسرور الفضلي الجعلي كرامات منها قال: الحاج خوجلي فلما حججت رأيته واقف فوق الجبل (ص. 106) وللشيخ بدوي ود ابودليق كرامة مع الملك عبد السلام (ص. 121)، كما للشيخ خليل الخميسي كرامات مشهورة منها أن البواب اذا جاء لكيل نفقة النهار ونفقة الليل يجد في العيش الدراهم والسوميت (ص. 203). وللشيخ خوجلي كرامة في جزيرة توتي تتعلق بالاستغاثة بعد فساد الزرع فيها بعدم وجود الماء. ويحكي ود ضيف الله عنه "فقام معهم وركب على حمار ووضع عصاه في البحر وقال: بسم الله الرحمن الرحيم ياشيخ أحمد بن الناصري. وقرأ حزب البحر مرة واحدة. فمن وقته هاج البحر، وذهبت تلك الجزيرة، وملا اقانين السواقي وثبت الناس في أماكنهم ببركته فصارت هذه الكرامة باقية إلى زماننا هذا سنة تسعة عشر بعد الألف والمايتين. وكانت عصاه من حديد فما وضعت في موضع قل ماوه إلا ذهب الرمل وهاج الماء فورا (ص. 197).

كما عرض ود ضيف الله كذلك الكثير من حالات العلاج التي تمت بواسطة الشيوخ وذكر بعضها بشيء من التفصيل وسوف نركز على مساهمة حسن بن حسونة في مصر ومكة ومساهمة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن. وعن ودحسونة يحكي ود ضيف الله قال الشيخ نحن في مصر في رجل خواجه عظيم القدر كثير المال مرضان مرضا عجز الأطبا عن علاجه. أخبروه قالوا له: في رجل بري جبته ما بتلمس جلده ماتجيبه يعزم لك. قال: ساقوني وأدخلوني عليه عزمت عليه فشفاه الله عن قريب فملا للفرا أطرافهم قماشا غاليا. واحد فيهم شال طاقة في الحارات ليبيعها قالوا له: هذه الطاقة ميه حق الدراويش، من أين لك؟ قال لهم: من جنسها عندنا كثير. شيخنا عزم للخواجه فلان فعوفي فأعطانا ذلك. قالوا له: الخواجه عزموا له جميع الصالحين ما بقى طيب، شيخك ساحر. ساقونا ودونا للسنجك السنجك أول ما التفت شاف شخصا شايل سيفا قال الفقرا زملوهم وصرفوهم فجاءنا الفزع من كل جانب: حسن حسن! فقلت لهم : سلامة وصلحة حصلت (ص. 135). وتوضح هذه الحالة حسب وصف ود ضيف الله شهرة ود حسونة التي ملأت الآفاق وعلاجه للمرضي ليس في السودان فحسب وإنما في الخارج، وليس للسودانيين فحسب وإنما للأجانب من الخواجات كذلك.

وتحكى حكاية ثانية عن مساهمة الشيخ حسن ود حسونة في العلاج النفسي خارج السودان في بلاد الحجاز بمكة المكرمة . يقول ود ضيف الله: ثم انا قدمنا مكة ووجدنا فيها رجل شريف قطب أمه مرضانة مزمنة. قالوا له: ياسيد ماتعزم لأمك. قال: اي شفاؤها على يد رجل مليح يجي من بلاد البر قميصه ما يلمس جلده. فبينما نحن بالحرم كلمه عبد له قال له: ياسيدي الرجل الوصفته جا في الحرم. ساقوني ودوني له فاقمت عنده اياما. فعزمت لامه فعوفيت فبينما أنا قاعد معه في السطح الفوق فقابلني بعض الفقرا. قالوا زواملنا ماتت جوعا فرفعت يدي في الهواء فامتلأت دنانير ورميتها لهم. فإن الشريف حصلت له غيرة وأراد يسلبني فما قدر (ص. 136). ومن الجوانب المهمة التي وثق لها ود ضيف الله عن مساهمات حسن ود حسونة هي عملية احياء الموتي وابراء الآهات. فيما يخص احياء الموتي مثلا "أحيا بنت الريس في الخشاب وامها اسمها ام رقيمة جاءت له قالت له: ياسيدي بنتي ماتت، ابوها ماله مال حرام كفنها لي. فمشى عليها شافها قال لها: بنتك طيبة ما ماتت قومي. فتمالت روحها وقامت. واحيا عفيشة ولد ابكر غرق في بحر الخشاب فمكث في البحر ثلاثة ايام وانقضى نحبه، وقالوا له صلي على حوارك فقال: انا مان حسن الأول عندي سيدي: أنا حواري غرقان له ثلاث ايام ما أخبره . فلما قال له قم. فقام فتمالت روحه وتزوج بعد ذلك وولد له ولد اسماه ابكر. قال سوار الخليفة انا شفت ابكر المولود بعد موت ابيه. واحيا ولد المرقوبين، رجالا مراقيب عنده (ص. 143) خرجوا معه للقنيص، عندهم فرد ولد لقيوه ميت جاءه شافه قال: لهم: مامات، قم. فقام وتمالت فيه الروح (ص. 144) .

أما ابرائه ذوي العاهات والمرضى ، يحكى أن الشيخ على كرانج شيخ ولد عجيب على نواحي الحلفاية آخر عمره عمي. الشيخ حسن أرسل لـــه قال له: ولد مطليق المسلمي، عربيك بدورك تكسر عظمه لي. قال لزول الشيخ: مابعف منه ان كان الشيخ ما بفتحني من عماي. قال الشيخ: القدرة صالحة لاكثر من ذلك ركبوه هل يجي. ودوه ليه فلما وصله، مسكه مـــن رأسه ففتح شاف الناس القاعدين يمينا وشمالا وخلفا واماما. فقال له: بقى لك امدا يسيرا من الدنيا أخير ليك تكون في عماك وتفتح بين يدي الله،والله أخير لك افتحك من عماك. قال له ياسيدي أخير لي افتح بين يدي ربـــي. فعفا عن العرب ورجع (ص. 144). ويحكى أن الملك بادي ولـــد ربـــاط ارسل الي الشيخ حسن وقال له تعال اعزم الى ناصر اخوي ماسكاه غزالا عاجناه فتأهب للسفر وقامت الدنيا معاه. المظاليم والمراقيب والعيله

الفوق عضم السلطنة يدور عفوة. فسافر الى سنار تجنب في وجهه من الخيل ثلاثة واربعين جنيبة، سروجها مخرتية وثلاثة كراديس قدامهم، المكادة الشايلين البندق ثلاثة وأربعين، وجمال البديد سبعين وكلها جنايب في وجهه، وهو راكب على جمل بطانة حبل. ومساهمة أخرى لحسن ود حسونة في ابراء المرضي وثقها ود ضيف الله " جابوا له رجل مجنون فقال اين محله قالوا له: محله بين الدل والفتيح قال: بين الدل والفتيح يا ام شتيح. فعوفي الرجل من حينه (ص. 146). كما يحكي ود ضيف الله عن قدرة الشيخ خوجلي في ابراء المرضي "ومنها ان فاطمة بنت عبيد مرضت مرضا شديدا اشرفت فيه على الموت، وجاءه الفقيه النور وقال له: ياسيدي الشيخ حسن أحيا الميت دا الحين دايرك تسئل الله لها ان يحييها ناذر لك بفرخها قسم الله. وانه عزم للفقيه النور في ماء الركوة وغروها بالماء فمجته لانها في حالة السياق. فإن اخر الليل خاطبت النور بصوت هادي وقالت: انا طيبة، فاني رأيت الشيخ خوجلي واقف عند الصندوق فوكزني بعصاه وقال لي: قومي. ثم ان النور قام في ليله وركب وسار الى توتي فوجد الفقيه احمد بين الشيخ قدام المسجد وقال له: البشارة بنت عبيد طيبة. وقال له احمد: الفقيه ساد الخلوة عليه إلى الان. وقال انا غلبان كنا انا وملك الموت نتنازع في روح بين عبيد فتركها لي (ص. 198-199).

وفقا لتعبير حسن (1992)، محقق المخطوطة، تعتبر "طبقات ود ضيف الله" مرآة صادقة لحياة السودانيين الدينية والروحية والثقافية والاجتماعية وسجل صادق لمعتقداتهم الدينية في ذلك العصر والتي تمثل الجذور التاريخية لكثير مما سائد في سودان اليوم. ومن غير شك يعتبر كتاب الطبقات أول مصدر رسمي يؤرخ لماضي علم النفس في السودان والذي نشر في طبعتين غير محققتين عام 1930 . ومن خلال هذا السفر العظيم يمكن دراسة موضوع "الكرامات" والتي يمكن فحصها من خلال فرع الباراسيكولوجي، ودراسة مفهوم "البركة" من خلال علم النفس الديني أو الروحي. ومن ناحية سيكولوجية، تلعب الكرامات والخوارق والبركة دورا رئيسا في مجابهة حالات الاحباط وقسوة الحياة وظلم الولاة. وتضمن الكرامات انزال المطر في غير مواعيد، ارجاع البصر للعمايا، احياء الحيوانات والبشر من الأموات، حيض الرجال. وتعتبر هذه الكرامات بأن لهؤلاء الشيوخ من أوليا الله الصالحين لهم قدرات خارقة فوق قدرات البشر العاديين. كما يمكن كذلك دراسة الكثير من حالات العلاج النفسي التي تطرق لها ود ضيف الله في طبقاته عن علاج الفقراء والتي يمكن فحصها في علم النفس الحديث من خلال علم النفس المرضي وعلم النفس الاكلينيكي فضلا عن دراسة التقنيات المستخدمة في العلاج من التعاويذ والرقي والعزيمة وقراءات الأحزاب كحزب السيف. ومازالت هذه التقنيات تستخدم في الوقت الحالي بالنسبة لقطاع كبير من المجتمع حتى في مراكز العلاج الحديثة المسماه العلاج بالقرآن والعلاج بالرقية. ويمكن من خلال عرض بعض المقتطفات أعلاة أن نوجه انتباه علماء النفس للوديعة المتروكة لهم في كتاب الطبقات ومخطوطة كاتب الشونة ومحاولة تشريحهما وتحليل الجوانب التي لها علاقة بعلم النفس بمختلف فروعه. فعلى سبيل المثال نجد وصف لبعض حالات المرض منها ماذكر بصورة خاصة عن "الجنون" وكذلك تصنيف المرض من خلال استخدام تعبير "مزمن" و"شديد" كما يمكن دراسة كيفية عملية ابراء المرضي وابراء العاهات الكبيرة وكيفية استخراج الغرقان من البحر، وتفتيح العمايا، والطيران ، ومعرفة عالم الغيب (المستقبليات) واحياء الموتي كما ذكر.

وغير علم النفس المرضي والعلاجي، ربما يمكن القول بأن هناك ملامح كذلك لعلم النفس التربوي قبل بداية تاريخ علم النفس الرسمي في التراث الديني المرتبط بالخلاوي والمساجد، وحلقات الشيوخ خاصة في دراسة اللغة العربية، ومبادئ الحساب، وحفظ وتجويد القراءن الكريم. وعموما كانت الخلاوى مراكز للنشاط الروحي والعلاجي والاجتماعي في الريف بصورة خاصة . وكانت الخلوة تجمع بين البعد التعليمي والبعد التعبدي من غير عملية ازدواج وكان الشيخ يجمع بين الوظيفتين من غير عملية انشطار. وفقا لحسن (1992) يتضح هذا الامتزاج بين الوظيفتين في الاستعمال المحلي إذ تعني كلمة "فكي" وترسم أحيانا فقيه وتجمع "فقراء" فقيه وفقهاء، كما تشير إلى "فقير" وتجمع فقراء أي صوفي. ومن ثم أصبحت كلمة "الفكي" ترمز دون تمييز إلى الفقية الصوفي. وربما تنعكس تلك الوظائف أو الملامح في طرائق التعليم المستخدمة، ونوعية التربية في هذه المؤسسات، ونظم الدافعية المستخدمة في عمليات الحفظ، وطبيعة التعزيز الايجابي والسلبي المقدم من قبل المشايخ نحو التلاميذ في الخلاوي فضلا عن طبيعة العلاقة وطرق التواصل الرأسي بين الشيخ والتلميذ والتواصل الأفقي بين التلاميذ أنفسهم. وكثيرا ما يقال بأن الخلوة تهتم أساسا بعلميات أو آليات الحفظ والتكرار والتلقين بالنسبة للنصوص القرآنية ونصوص الحديث الشريف في عمليات التعليم المختلفة. وربما كان لهذه الاليات تأثير كبير فيما بعد في عمليات التعليم الحديث في السودان بتسمياته المختلفة في المراحل التعليمية بداية بالكتاتيب والمدارس الصغري والمدارس الأولية وفيما بعد المدارس الابتدائية ومرحلة الأساس. وواحدة من الانتقادات التي توجه لهذا النوع من سيكولوجية التعلم هو الاهتمام بالحفظ وتجاهل عمليات الفهم والاستدلال وسلوك حل المشكلات.

ويجب التنبيه أن ودضيف الله كان أمينا في تسجيل الحالات التي قام بتدوينها في طبقاته وهي تعكس مايدور في المجتمع خلال القرن التاسع عشر ربما أقرب للحالات المرضية التي قام الرازي بتدوينها والتي تعتبر ثمرة الممارسة الطبية في التراث العربي الاسلامي (الخليفة، 2001). ويمكن هنا دراسة أساليب التشخيص والتصنيف المستخدمة في العلاج الشعبي أو البديل في ماضي علم النفس. كما يمكن دراسة كذلك نوعية المنهج الذي استخدمه كاتب الشونة وود ضيف الله في كيفية وصف ورصد الحالات المعالجة ودراسة المصادر والروايات المتواترة في ذلك الحين. فضلا عن ذلك يمكن دراسة نظام المردود الذي يجده المعالج من المريض، فمقابل عمليات الاشفاء من المرض كان يجد المعالجين من الشيوخ النذور والهدايا من المرضي أو ذويهم. ووفقا لحسن (1992) استغل الشيوخ هذا الدخل للقيام بمتطلبات وظيفتهم التي تجمع بين الارشاد الديني والهداية الروحية وعلاج المرضى بالاضافة إلى الانفاق على المحتاجين وأبناء السبيل والفارين من بطش السلاطين. ويحتاج المتخصصين في علم النفس الاجتماعي دراسة جوانب النشاط الصوفي والديني والاجتماعي الذي تهيأ للشعوب التي تكون مملكة الفونج مع دراسة أسباب الاستقرار والوحدة والاندماج الاجتماعي والتي تكون بمثابة الجذور لمكونات الشخصية السودانية المعاصرة. ويجب أن نترك مرحلة ماضي علم النفس في هذا المكان وتصوير مشهد بزوغ تاريخ علم النفس الحديث في القرن العشرين.

علـــم النفـــس فـــي الخمسينـــات: سكـــوت نموذجـــا

بوسعنا القول بأنه بعد مساهمة ود ضيف الله في القرن السابع عشر ومساهمة كاتب الشونة في القرن التاسع عشر كانت هناك هضبة نسبية في تصوير مشهد علم النفس في السودان ما بين الماضي والتاريخ حتى منتصف القرن العشرين. وفي مرحلة ماضي مشهد علم النفس كان التركيز بصورة أساسية على موضوع العلاج النفسي ولحد ما علم النفس التربوي كما في مخطوطة كاتب الشونة وكتاب الطبقات لود ضيف الله. وفي مرحلة تقديم علم النفس يمكن القول بأن التركيز كان كذلك على مقدمات علم النفس التربوي والطب النفسي. ويمكن التأسيس لهذه المرحلة بمساهمة معهد بخت الرضا في هذا المجال. وكانت مادة علم النفس التربوي تدرس من ضمن المقررات الدراسية كما كان بالمعهد مكتبة

تحوي عددا من كتب علم النفس. وفقا لفرح (2009) كان هناك تركيز في علم النفس التربوي على المذهب السلوكي. ويظهر ذلك في النشاط والنظام التربوي الذي كان يطبق في المدارس والداخليات والسجون حيث يكـــون الاستخدام الحرفي لجداول التعزيز والعقاب والثواب بينما ترك المـــذهب التحليلنفسي أثرا في الأدب والفن والشعر.

وفي الخمسينيات، وفقا لكردمان (2003)، ربما كان أول سوداني اهتم بتدريس مادة علم النفس هو كامل الباقر وذلك عام 1955 وبمجهوداته ومجهودات بخت الرضا تم زرع بذرة علم النفس التربوي في نفوس المعلمين وبدأ الاهتمام بسيكولوجية المعلم وسيكولوجية الطالب فزاد الاهتمام بعلم النفس. وهناك مساهمة ثانية ببداية تدريس علم النفس كجزء من علم الاجتماع والفلسفة في بدايات جامعة القاهرة فرع الخرطوم عام 1955. وبعدها بسنين قليلة تم تدريس دبلوم التربية والذي يحتوي علي مقررات لمادة علم النفس. أما الاتجاه الثاني لعلم النفس في الخمسينيات هو تقديم العلاج النفسي. ويمكن القول بأن بداية علم النفس في السودان كانت بدايات ترتبط بعلم النفس التربوي والعلاج النفسي المرتبط بالطب النفسي وهي ذات البدايات لملامح علم النفس في مرحلة ماضي علم النفس خاصة مساهمة السلطنة السنارية. ومن القفزات الكبيرة لتطور العلاج النفسي في السودان ففي عام 1950 قام العبقري التجاني الماحي بعد تخرجه من معهد الطب العقلي بجامعة لندن بفتح أول عيادة للأمراض النفسية والعصبية. وفي عام 1958 تم بناء ثاني عيادة نفسية في مدينة الخرطوم بحري وذلك بعد عودة طه باعشر حيث تخصص في علم النفس الطبي وعمل مع أستاذه التيجاني الماحي.

ولكن إن أشهر بل أهم مساهمة في مشهد علم النفس خلال فترة الخمسينيات لها علاقة مباشرة بعلم النفس عامة وعلم النفس التربوي بصورة خاصة هي تطبيق أول مقياس للذكاء في السودان بواسطة سكوت (Scott, 1950)، تحت رعاية كلية غردون التذكارية بالتعاون مع معهد بخت الرضا وتحت اشراف فيرنون في بريطانيا ومساعدة الأستاذ ضرار صالح ضرار. ويمكن على علماء النفس البحث في "ملامح" علم النفس في الكتابات التاريخية والاجتماعية والثقافية والانثروبولوجية خاصة ابان الفترة الاستعمارية مثل ماكمايكل في تاريخ القبائل في السودان، وترمنجهام في تاريخ الاسلام في السودان، وايفان بريتشارد عن الزاندي، وكينسون عن البقارة، وطلال أسد عن الكبابيش. وحسب قول سكوت (Scott, 1950) يدخل الأطفال في السودان المدرسة الأولية في عمر 7- 8 سنوات وحوالي نصف الأطفال لهم شهادات ميلاد بينما تم تقدير أعمار بقية الفئات العمرية. وأتى غالبية الأطفال الذين تم اختبارهم من أسر أمية أو شبة أمية ويدرس هؤلاء الأطفال في المدرسة باللغة العربية الكلاسيكية وهي تختلف عن اللغة العامية التي يتحدثونها في المنزل. ولهذا السبب تم اختيار اختبارات لفظية (شفاهية) للذكاء وهي أكثر مناسبة بالنسبة لهم. وبدأ سكوت محاولته بتكييف اختبار القباني–بلارد (Gabbani-Ballard Test) وهو اختبار لفظي جمعي بريطاني الأصل . ويحتوى على 64 سؤال ويتم تطبيقه في فترتين كل فترة تتكون من 45 دقيقة. وتبدأ الفترة الأولي بعدد 5 أسئلة للتمارين من أنواع مختلفة بينما في الفترة الثانية هناك تمرين واحد. ولا تجمع الأسئلة (البنود) المقدرة في اختبارات فرعية بينما تخلط مع بعض. ويقدم كل بند بصورة شفاهية بينما تكتب الكلمات المهمة والأرقام في السبورة. وعلى كل طفل مختبر بواسطة مقياس الذكاء أن يسجل استجاباته.

وعمل سكوت (Scott, 1950) على تعديل أسئلة اختبار القباني–بلارد كي تناسب البيئة المحلية في السودان. وقام بتطوير مقاييسه للذكاء في عدة مراحل أو محاولات. ففي مرحلته أو محاولته الأولى، قام بعملية تقنين المقياس على عينة ممثلة من 900 طفل لهم شهادات ميلاد تتراوح أعمارهم بين 10-16 سنة. ولم تكشف الدراسة عن علاقة ارتباطية قوية بين العمر ودرجات المقياس في المرحلة الأولية أو المتوسطة. ولا تفسر عملية حجم التحيزات في المقياس النتائج المتحصلة في الاختبار. ولهذا السبب بدأ سكوت بتفهم حجم الصعوبات التي تواجه من يود القيام بأول محاولة في دولة جديدة خاصة من الدول الأقل تحضرا (less civilized) حسب تعبيره. أولا: يجب أن تكون جميع أسئلة المقياس مناسبة لبيئة الأطفال. ثانيا: إن اختبار الذكاء الذي طوره القباني في مصرر هو من دون شك مناسب للأطفال المصريين ولكن عندما تم استخدامه في السودان من خلال عملية تكييفه فإن ثلثي أسئلة المقياس أثبتت النتائج أنها ضعيفة أو لا تميز بين الأطفال في السودان ويرجع السبب في ذلك إما لأنها أسئلة سهلة ويستطيع كل الأطفال الاجابة عليها أو هي هي أسئلة صعبة ويخطأ كل الأطفال في الاجابة عليها. وهناك مجموعة كبيرة من الأسئلة تسوء عملية فهمها نتيجة للعلاقة بين الأفكار والتي تختلف باختلاف البيئات الجغرافية والاجتماعية. وثانيا: يجب أن تكون عملية تقديم الأسئلة بصورة مناسب للبيئة المحلية . ووفقا لتعبير سكوت (Scott, 1950) ما يكون مناسبا في انجلترا ليس بالضرورة أن يكون مناسبا في مصر، وما يكون مناسبا في مصر ليس بالضرورة أن يكون مناسبا في السودان.

وفي محاولتة الثانية قام سكوت (Scott, 1950) بتجريب 400 سؤال من أسئلة لها علاقة بقياس الذكاء على عينة قدرها 460 طفل ومن ثم تم اختيار 88 سؤالا من خلال 3 معايير. وتم تطبيق كل اختبارات مقياس القباني–بلارد مع مجموعة أخرى من الإختبارات والتي تكون في مجموعها 21 نوعا من الاختبارات. وكشفت النتائج عن صلاحية 11 منها بينما تم رفض 10 منها. وكشفت نتائج المحاولة الثانية نتائج أفضل مقارنة مع المحاولة الأولى. بالرغم من العلاقة السلبية بين الفئة العمرية والدرجات المنالة لكن كانت النتائج في مجملها ذات علاقة ارتباطية ايجابية. وفيما يخص التحقق من مصداقية وثبات مقياس الذكاء المطبق في السودان واجهت سكوت بعض المشاكل. لم يستطع سكوت مثلا قياس درجة العلاقة الارتباطية بين مقياس ومقياس آخر لعدم وجود مقياس آخر للذكاء، وبتعبير ثان بأن مقياسه للذكاء هو الأول من نوعه في السودان. ولكن تمت عملية فحص العلاقة الارتباطية بين تقديرات المعلمين للذكاء والنتائج المدرسية والاثنين لهما اشكالاتهما. وهناك شك في صلاحيتهما من حيث المصداقية أو الثبات. فيما يخص المصداقية ليس هناك معلم سوداني له معرفة كافية بالمعنى التقني لمفهوم "الذكاء" وهناك الكثير من الصعوبات بخصوص المجهودات التي تتعلق بتعريف الذكاء وليس هناك من المعلمين من كانت له خبرات سابقة في عملية قياس الذكاء. ويعكس بعض المعلمين في تعريفهم للذكاء البديهه العامة، التحصيل الدراسي، والطاعة، فضلا عن الأخلاق الحميدة. وفيما يخص قياس درجة الثبات قام سكوت (Scott, 1950) بمحاولة قياسها من خلال تقديرات بعض المعلمين. وتراوحت هذه التقديرات بين 0.88 و 0.21. وتراوحت معدلات الثبات من خلال إعادة القياس بعد مرور 6 شهور لمجموع 91 طفل بين +0.92 بالنسبة للأطفال في الفئة العمرية 3 و4 و+.88 للأطفال في الفئة العمرية 5، 6، 7.

وفي محاولة ثالثة، استخدم سكوت (Scott, 1950) اختبارين منهما اختبار مطبوع في شكل مقياس المنزل لموراي (Moray House Test) والذي تمت عملية ترجمة بنوده للغة العربية. ويذكر بأن الفروق بين اللغة العربية المكتوبة والشفاهية جعلت هناك صعوبة كبيرة في انتاج الاختبار. وتوصل اسكوت لبعض النتائج المهمة من خلال تطبيق هذا الاختبار في البيئة المحلية في السودان. مثلا، وجد أن الزمن المسموح به لتطبيق الاختبار كان أطول في السودان مقارنة ببريطانيا. فقد تمت عملية تطبيق الاختبار على 42 من طلاب كلية غردون التذكارية تراوحت أعمارهم بين 18-22 سنة، وكان متوسط معدل ذكائهم يتميز بالتأكيد

بالارتفاع وتم منحهم مدة 45 دقيقة لاكمال الاختبار تماما كما في بريطانيا. وأظهرت النتائج محاولة 20% من الطلاب اكمال كل اسئلة الاختبار في الزمن المسموح به بينما هناك 20% من الطلاب حاول حوالي 77% من أسئلة الاختبار التي تتكون من 100 سؤال. وثانيا كشفت النتائج بأن هناك علاقة ارتباطية ضعيفة بين الدرجات المنالة في الاختبار والزمن الذي تم أخذه لاكمال الاختبار. ثالثا: هناك قلة من الأطفال قدمت استجابات خاطئة لأسئلة بعض الاختبارات الفرعية بصورة كلية بسبب عدم معرفتهم ما هو المطلوب منهم.

قام سكوت (Scott, 1950) بتطبيق الاختبار اللفظي الثالث لطلاب المدارس الأولية بينما قدم الاختبار الثالث المطبوع بالنسبة لطلاب المرحلة المتوسطة وهو اختبار مناسب في محتواه وشكله يتكون من 34 من الاسئلة القديمة بالاضافة إلى 54 من الأسئلة الجديدة التي تم اختيارها من بين ال 150 من الأسئلة الأصلية. وتم تطبيق الاختبار على عنية قدرها 672 من الأطفال في الفصول الدراسية 3 و4 سنوات في 11 مدرسة أولية بالاضافة لعينة قدرها 108 طفل من مدرستين للأطفال في السنة الأولى متوسطة. ولتقنين الاختبار تم تقديم الاختبار مرتين بفاصل زمني قدره 7 شهور لعدد 160 من الأطفال لبحث معدل الزيادة في معدلات الذكاء. وأظهرت النتائج زيادة قدرها 12 درجة مع الخطأ المعياري بمعدل 04. كما أظهرت النتائج بأن زيادة الدرجات بالنسبة لثلاثة فئات عمرية 9، 10، 11 كانت 12.9، 12.5، 11.3 على االتوالي. وأظهرت الدراسة بأن أثر الممارسة كان ضعيفا في زيادة معدل الذكاء. وعمل سكوت على عمل معيارين للذكاء واحد للفئة العمرية 10.4 والآخر للفئة 11.4 سنة. وعموما كان متوسط معدل الذكاء بالنسبة لعينة قدرها 672 من الأطفال 100.8 للأطفال في الفصل الثالث بالمرحلة الأولية و101.1 بالنسبة للأطفال في الصف الرابع بالأولية. وكان الخطأ المعياري للمجوعتين 0.6 و 0,7 بالتوالي. ولا تختلف هذه المعدلات بصورة دالة من المتوسط 100. وأظهرت نتائج الدراسة درجة عالية من العلاقة الارتباطية بين معدل الذكاء ونتائج الدخول للمدرسة في مستوى 0.82 بالنسبة لعدد 34 من الأطفال من مدرستين. كما كشفت النتائج عن علاقة ارتباطية قوية بين نتائج التطبيق الأول والثاني للمقياس لعدد 160 طفلا كمقياس لدرجة ثبات الاختبار التي وصلت لمستوى 0,94.

وفي محاولة رابعة، قام سكوت (Scott, 1950) كذلك بتطبيق اختبار جينكينس غير اللفظي (Jenkins Non-Verbal Test) وذلك باستخدام أدوات غير اللفظية وغير المطبوعة. كما قام سكوت بفحص عدد من الاختبارات الصورية في المجال منها اختبار أوليفر "اختبار الذكاء العام للأفارقة" (General Intelligence Test for Africans) الذي يحتوى على 154 سؤال وكانت درجة ثباته +0,81 . كما فحص اختبار أوتس واختبار كاتل المتحرر من أثر الثقافة (Otis and Cattell). وتم التساؤل بأنها اختبارات مناسبة للأطفال في بريطانيا ولكن لأي حد هي مناسبة للأطفال في السودان. وليس في وسع سكوت تطوير اختبار صوري خاص به ولهذا السبب عمل على تطبيق اختبار جينكينس "المقياسي غير اللفظي للقدرات العقلية" (Scale of Non-Verbal Mental Ability). وعمل سكوت على تكييف الاختبار لمناسبة البيئة المحلية من خلال تعديل في الارشادات والأرقام ولأن اللغة العربية تقرأ من اليمين للشمال. وتم بذل مجهود كبير بصورة خاصة في ترجمة ارشادات وتعليمات المقياس من الانجليزية للعربية.

وتم تجريب المقياس على عينة قدرها 52 من الأطفال الـذكور بمتوسـط عمر 15.11 والذين تم قبولهم في المرحلة الثانوية. وكان متوسط معـدل ذكائهم 58 درجة من بين 85 درجة كلية وهي تعادل معـدل ذكـاء 111 بالنسبة للأطفال في بريطانيا في الفئة العمرية 12.11. وكشفت النتائج انخفاض العلاقة الارتباطية بين نتائج مقياس جينكينس واختبار الذكاء المطبوع بمستوى 3., ولهذا السبب بدأ سكوت سلسلة من التجارب لمعرفة أثر التعديلات في زيادة معدل العلاقة الارتباطية بين مقياس جينكيسنس والمقياس اللفظي للذكاء. وتم تقديم 15 سؤال أضافي كتمارين قبل تقديم المقياس وتمت عملية قراءة الارشادات بصوت عال للأطفال وتكرارها باللغة الدارجة فضلا عن زيادة الزمن المسوح به لاكمال المقياس والذي يتيح الفرصة لأبطأ تلميذ لإكمال المقياس وذلك بزيادة 5 دقائق. وكانت النتائج مذهلة لهذه التعديلات في ارشادات الاختبار. وأظهرت النتائج بأن متوسط الدرجات بالنسبة للأطفال في الصف الرابع (متوسط عمر 12 سنة) كان بفارق 4 درجات فقط من متوسط درجات الأطفال في الصف التاسع (أولي ثانوي) بمتوسط عمر 15.11.

وفي مرحلة لاحقة، قام سكوت (Scott, 1950) بتطبيق مقياس جينكينس والاختبار اللفظي للذكاء لعينة قدرها 100 من الأطفال في الصف الرابع و100 من الأطفال في الصف الأول بالمرحلة المتوسطة. وكانت العلاقة الارتباطية + 0,58 بالنسبة للصف الرابع و+ 0,38 للصف الأول بالمتوسطة . فضلا عن ذلك قام بقياس درجة ثبات مقياس جينكيسن من خلال عملية إعادة تطبيقة لعينة قدرها 100 من الأطفال في الصف الرابع وكانت درجة الثبات (+0,82) و100 في الصف الأول بالمتوسطة حيث كانت درجة الثبات (+ 0.68) كما أظهرت نتائج العلاقة الارتباطية بين الاختبار اللفظي البريطاني الرابع فضلا عن تكرارها باللغة الدارجة كما تم تطبيق اختبار آخر للذكاء. ومن النتائج البارزة التي توصل لها سكوت بأن الاختبارات الأجنبية اللفظية المترجمة حتى مع عمليات التكييف التي تمت لها هي غير صادقة وغير ثابتة من حيث المضمون والعرض. بينما الاختبارات المحلية التي تقوم على التجريب المكثف هي أكثر مصداقية وثباتا. ومن صعوبات تطبيق المقاييس في السودان درجة الأمية العامة بالنسبة للسكان فضلا عن عدم مطابقة اللغة المكتوبة والمتحدثة. وعموما يحتاج الأطفال في السودان وفقا لتوصيات سكوت (1950) : (أ) مزيد من التهيئة النفسية و(ب) مزيد من التوضيح (ج) مزيد من التمارين (د) مزيد من الزمن لإكمال الاختبار أكثر مما يحتاجه الأطفال في بريطانيا.

فيما يخص نوعية ومحتوى الاختبارات السيكولوجية التي وضعها سكوت (1950) فقد وضع الاختبار الثامن لتلاميذ المرحلة الوسطى الذين تتراوح أعمارهم بين 11-15 سنة ويعادل ذلك في الوقت الراهن المرحلة من الصف الخامس حتى الصف الثامن أساس. ويتكون الاختبار من 97 وحدة مقسمة إلى 9 اختبارات فرعية مع بعض التعليمات المكتوبة لتوضح الارشادات بالنسبة للتلاميذ وهناك بعض الأمثلة النموذجية على الاجابة. وخصصت الصفحة الأولى من المقياس بالنسبة لتوثيق البيانات الديمغرافية والارشادات الخاصة بكيفية تطبيق الاختبار بالنسبة للمفحوصين. يحتوي الاختبار الأول على 12 وحدة تتكون كل وحدة من كلمة ومطلوب من المفحوص أن يكتب الكلمة التي تعطي المعنى المعاكس للكلمة وهو مقياس للقدرة اللغوية، أما الاختباران الثاني والسادس فيحتويان على 24 وحدة والمطلوب من المفحوص أن يجد الكلمة المخالفة للكلمات الأخرى ويتطلب هذا الاختبار ايجاد علاقة ما بين الكلمات لمعرفة الكلمة الشاذة ويعتبر الاختبار مقياسا للتصنيف اللغوي. ويضم الاختبار الثالث 12 وحدة من أسئلة التناسب وهو مقياس للقدرة على ادراك العلاقات. وتتنوع وحدات الاختبار حسب أنواع العلاقات كالتشابه والتضاد وعلاقة السببية وعلاقة الجزء من الكل . ويقيس الاختبار الرابع الذي يتكون من 10 وحدات مدى مقدرة المفحوص على متابعة التعليميات وفهمها بدقة للوصول إلى الحل الصحيح لكل مسألة. أما الاختباران الخامس والتاسع فقد خصصت وحداتها لقياس المقدرة على حل الألغاز وفك رموز الشفرة والتعويض، وفي الاختبار التاسع الذي يتكون من 12 وحدة لقياس القدرة

على الاستدلال الرياضي باستخدام سلاسل الأعداد وأخيرا الاختبار الثامن الذي يتكون من 11 وحدة لقياس القدرة على استعمال بعض المهارات الرياضية المكتسبة لترتيب بعض الأعداد أو كميات أشياء معينة مثل عدد من الدقائق والساعات (المركز القومي للابحاث التربوية، 1979).

ربما يمكن التسؤال، ماهي الأهداف الحقيقية لمحاولة سكوت في قياس الذكاء؟ هل بقصد ترقية البحث العلمي أو التربوي أو السيكولوجي أو القياس النفسي، أم جزء من السياسات الاستعمارية بمعرفة نقاط القوة والضعف في الشعوب المستعمرة. وربما يمكن التساؤل هل تمت الاستفادة القصوى من جهود سكوت في تطبيق هذه المقاييس بخصوص الاختيار التربوي أو في مجال الارشاد النفسي بالنسبة للتلاميذ أو في عمليات التوجيه التربوي أو في أغراض البحث العلمي؟ لم تظهر التقارير التربوية أية اشارة بخصوص الاجابة على هذه الأسئلة المطروحة. بالرغم من التوصيات التي صدرت من عدة لجان مختلفة عن أهمية ادخال الاختبارات العقلية في عملية اختيار الطلاب للمراحل المختلفة وقد وردت هذه الاشارة في تقرير اللجنة الدولية للتعليم الثانوي في السودان لعام 1955 وفيما بعد تقرير المسح التربوي لعام 1977 (المركز القومي للابحاث التربوية، 1979). ولكن يبدو بالرغم من الجهود الجبارة التي قام بها سكوت لم تلق الاختبارات التي أعدها أي اهتمام يذكر من قبل الادارة البريطانية للتعليم أو الادارة الوطنية التي تولت السلطة السياسية والتعليمية بعد استقلال السودان. وقد أهملت هذه الاختبارات تماما لمدة 30 عاما حتى ظهر اهتمام أكاديمي من بين بعض المعلمين في نهاية السبعينيات في بخت الرضاء في محاولة للاستفادة من هذا التراث السيكولوجي والتربوي في مجال القياس النفسي فضلا عن عملية تقويمه. ولقد عثرت هذه المجموعة المهتمة على الاختبار الثامن والأخير الذي وضع فيه سكوت عصارة جهده وتجاربه في مجال القياس النفسي.

فمهما كانت الاجابة للأسئلة المطروحة أعلاه فإن المجهود الذي قام به سكوت يعتبر مجهودا كبيرا في عمليات التجريب والتطبيق لأول مقياس للذكاء في السودان، وتم فيها استخدام عينات مختلفة من الاختبارات اللفظية والمكتوبة والصورية والتي تمت عملية تجريبها لفئات عمرية مختلفة وفي مراحل دراسية متباينة من الأولية والمتوسطة والثانوية. وقام سكوت بمجهود كبير جدا في قياس درجات الثبات والصدق بصورة متعددة، وتمت محاولات جبارة في ترجمة وتكييف كبيرة للاختبارات، وتسجيل ملاحظات دقيقة عن تطبيق المقاييس السيكولوجية بدرجة عالية من الحساسية الثقافية والخصوصية الاجتماعية حتى بالنسبة ل"خواجي". ونشرت الدراسة في أرفع الدوريات في بريطانيا في مجال علم النفس التربوي (British Journal of Educational Psychology) ومن قبل نشرت محليا في السودان في رسائل ومدونات (Sudan Notes and Records) فضلا عن إعادة تطبيق المقياس في بخت الرضا بواسطة المجلس القومي للابحاث التربوية (1979). وعلى أية حال إذا كان هناك شيء يحسب لسكوت ومعاونيه فإن أول مبادرة أو تدشين أو حادثة أو مساهمة أو محاولة أو مجهود في مشهد علم النفس (سمها ماشئت) في تاريخ القياس النفسي في السودان تبدأ عام 1950.

علـم النفـس في الستينيـات: باعشـر نموذجـا

بدأ مشهد علم النفس في الستينيات بتدريس مادة علم النفس في جامعة الخرطوم عام 1961 ضمن شعبة الفلسفة بكلية الاداب، و في عام 1962 تم إنشاء قسم للعلاج النفسي بمستشفي الخرطوم. ويعتبر مالك بدري أول خبير نفسي يقوم بممارسة مهنة العلاج النفسي وذلك بمستشفي بحري سنة 1964م (محمود ، 2002). وفي عام 1967 تم إنشاء مدرسة علم النفس بكلية الأحفاد الجامعية وكانت تعرف باسم كلية العلوم الاجتماعية، وكان أول دفعاتها تضم عشرة طالبات بعدها صار الإقبال عليها في ازدياد مستمر (دليل جامعة الأحفاد ، 2003). وكانت المدرسة تركز على مجال الصحة النفسية وربما لهذا السبب استقطبت الأطباء النفسيين للتدريس فيها خاصة المواد ذات الصلة مثل علم النفس المرضي وعلم النفس العلاجي وعلم النفس الصحي. وأدى هذا لتكريس ريادة الطب النفسي لمجالات الصحة النفسية كما في العيادات النفسية كذلك. وأصبح خريجو علم النفس مساعدين للأطباء وفشلت كل محاولات توسيع مفهوم الصحة النفسية لتستوعب الأخصائيين النفسيين وحتى وإن كانوا من حملة الدكتوارة (فرح، 2009). في عام 1968 بدأ تعيين أول أخصائي في مجال العلاج النفسي بوزارة الصحة شمل مالك بدري، الهام لبيب ، وطه أمير، وبشير عبد القيوم، ومني خليل ، والشيخ ريحان (بدري ، 2006، كردمان ، 2003). وفي مجال القياس النفسي ومن الدراسات المهمة التي نشرت خلال الستينيان دراسة فهمي (Fahmy, 1964) عن ذكاء الأطفال الشيلوك بجنوب السودان. وقام بقياس الذكاء لعدد 291 من الأطفال بواسطة أربعة مقاييس منها مقياس جودانف لرسم الرجل، ومتاهات بورتيوس، واختبار قوداد، واختبار الاسكندر. وقدرت نسبة ذكاء الأطفال الشيلوك ب 73.5. وتم اقتباس هذه الدراسة حول العالم منها كتاب لين وفينهانين (Lynn & Vanhanen, 2002) الشهير عن "الذكاء وثروات الأمم".

أما أهم دراسة نشرت عن القياس النفسي خلال الستينيات بدرجة عالية من الحساسية الثقافية أو الخصوصية الاجتماعية، قام بها مالك بدري (Badri, 1964, 1965a, 1965b) حيث قام بتطبيق اختبار رسم الرجل في السودان على عينة كبيرة بلغت 1453 من أطفال الحضر والريف ومن الذكور والاناث من الفئات العمرية 4-10 سنوات. وقد أجرى بدري (1966) بعض التعديلات المقترحة على عناصر الاختبار وفي التساهل في تصحيح بعض الأجزاء خاصة في تقدير طول الجذع والساقين في حالة الجلباب (الجلابية) كما تم اقتراح عناصر جديدة مثل أظهار الوشم أو الشلوخ على الخدود ورسم العصا أو الخنجر في حالة رسم الرجل بملابس قومية . ومن المشاكل التي وجدها بدري هو عدم تعود أطفال القري لاستخدام القلم والورق في الرسم خاصة لدى أطفال الأرياف وكذلك اختلاف أزياء الرجل السوداني من مجتمع إلى آخر لذا أقترح بدري عدة تعديلات علي الاختبار وإضافة عناصر جديدة لتناسب البيئة المحلية. وهناك قدر من التشابه بين المشكلات التي جابهت سكوت (1950) في الخمسينيات وتلك التي جابهت بدري (1964، 1965، 1966) في الستينيات في مجال القياس النفسي. وكان لدراسة بدري تأثير كبير على حركة تقنين الاختبار في البلاد العربية.

وهناك فرضية مصاغة بعناية وضعها بدري للعوامل التي تعيق الطفل العربي في رسم الرجل (بدري،1964، Badri, 1964, 1965a, 1957 ,1965b, Badri & Dennis,). وفقا لبدري، إن انخفاض درجات البدو في سوريا (دينس، Dennis, 1957) والريفيين في مصر (فهمي، د.ت) والريفيين في السودان (بدري، 1966) غالبا ما تعود لعدم إلفة هؤلاء الأطفال بمسك القلم والورقة، أو عدم ألفة رسم الرجل في أزياءة الغربية لأنهم تعودو على الأزياء التقليدية المحلية في العالم العربي كالجلابية والثوب والدشداشة والقطرة. كما يمكن تفسير انخفاض درجات الأطفال الشيلوك في الاختبار لعدم الفتهم اساسا بالملابس وذلك لأنهم عراه أو يلبسون ما يغطي العورة لذلك السبب يرسمون الرجل عاري الجسم أو شبه عاري طويل القامة ممشوق القوام، وحسب الوصف الدقيق لفهمي (1964) "أشبه شيء بالعصا الطويلة". واقترح بدري تعديل بنود الاختبار وفقا للملابس العربية. وفحصت فرضية بدري (1966) في الكويت بواسطة رأفت (1968)، وفي مصر بواسطة غنيمة (1976)، وفي السعودية بواسطة أبوحطب (1977) وغيرها من الدراسات. وتم اقتباس

دراسات بدري عن رسم الرجل كثيرا في الدوريات العالمية كما تم من خلالها قياس معدل الزيادة في الذكاء القومي بين عام 1964–2006 كرابع دراسة في العالم بعد البرازيل وكينيا والدومينكان (أنظر، Khaleefa, Abdelwahid, Abdulradi and Lynn, 2008)

وغير المساهمات الأربع السابقة في مشهد علم النفس في الستينيات المتعلقة ببداية تدريس علم النفس في جامعة الخرطوم وتدريس علم النفس بجامعة الأحفاد، وتعيين الأخصائيين النفسيين، ودراسات فهمي وبدري عن الذكاء فإن أهم مشهد هو مساهمة باعشر في علم النفس الطبي. ولهذا السبب سوف نركز بصورة خاصة في هذه المرحلة على مساهمة طه باعشر (الخليفة وحامد، 2008) الذي عمل معه مجموعة من علماء النفس كما قام بتدريب مجموعة من طلاب الدراسات العليا حتى وفاته 2008. تخرج باعشر من كلية كتشنر الطبية سابقا (كلية الطب، جامعة الخرطوم حاليا) عام 1949. وأثناء دراسته وعند تخرجه نال أربعة جوائز علمية ضمت التشريح، والجراحة، والباطنية، وعلوم وظائف الأعضاء فضلا عن ذلك كان أول دفعته. وفور تخرجه من الجامعة عمل طبيب امتياز في مدينة الخرطوم وأم درمان في الفترة 1949-1950، وأخصائيا في مستشفى مدينة مروي عام 1951 ومدينة ملكال 1951-1953. فضلا عن ذلك عمل أخصائيا في الطب النفسي في مستشفي الخرطوم بحري، ومستشفى الخرطوم بالسودان.

وفي عمر 34 عاما تم ابتعاثه لبريطانيا حيث نال دراسات عليا رفيعة في "علم النفس الطبي" في معهد الطب النفسي بجامعة لندن عام 1956. وعمل باعشر بعد تخصصه الرفيع في مجال علم النفس الطبي كبير مستشاري الطب النفسي بوزارة الصحة بالسودان ابتداءا من عام 1957. وفي عام 1970 أختير باعشر زميلا في الكلية الملكية لأطباء الأمراض النفسية في بريطانيا . واهتم بصورة خاصة بتنظيم اللقاءات والتجمعات العلمية منها مؤتمر الاتحاد العالمي للطب النفسي عام 1966 واجتماع الطب النفسي الأفريقي في الخرطوم 1970. وربما تكون هذه الاجتماعات ساعدت علماء النفس على وضع صورة لمهنتهم في مجال العلاج النفسي. ويتميز باعشر بالشغف بالتدريس في مجال الطب النفسي والقدرة على البحث العلمي، والمهارة الفائقة على الادارة والتنظيم، فضلا عن المساهمة الفعالة في بناء المؤسسات العلمية. وقد يصعب على الكثيرين القيام بهذه الأدوار مجتمعة. وأثناء فترة عمله بمستشفى الأمراض النفسية والعصبية بالخرطوم بحري كان يزوره العديد من المعالجين النفسيين من مختلف دول العالم خاصة من أمريكا وأوروبا واثار إعجاب الخبراء الأمريكان بمنهجه الخاص في الادارة والعلاج ومنحه المريض الفرصة الكافية للاندماج مع المجتمع والبيئة مع التأهيل الملائم (الخليفة وحامد، 2008).

وفي أثناء مسيرته المهنية واصل الجهود الجبارة التي بدأها أستاذه التجاني الماحي. وبذلك يقف باعشر في طريق طويل بدأه التجاني الماحي ويحتاج التلاميذ لمواصلة المسير فيه. وأثناء فتره عمله قدم العون الفني للعديد من الدول العربية والاسيوية في مجال العلاج النفسي خاصة تدريب الكوادر كما قام بتنظيم عدة اجتماعات ولقاءات ناجحة بين دول المنطقة للتداول وتبادل المعلومات والتشاور في مجال الصحة النفسية. في عام 1985 رجع باعشر للسودان في عمر 63 وتم تعيينه استاذا للطب النفسي بكلية الطب، جامعة الخرطوم حتى عام 2007 واضعا مع زملائه وطلابه هياكل قوية ومعالم بارزة في طريق مهنة تدريس الطب النفسي في السودان. ومن ناحية مهنية، لم يكتف باعشر بالتدريس وتنظيم اللقاءات العلمية بل قدم عشرات الدراسات والبحوث العلمية في مجال الطب النفسي وعلم النفس. وإن نتائج الدراسات الميدانية التي تتميز بالتنوع ودسامة المعلومات قادته لبلورة اتجاهين هامين هما الوعي بالثقافة وتاريخ العلوم. إذ كان واعيا في أبحاثه التي يبلغ عددها 37 بحثا بالخصوصية الثقافية خاصة تأثير الدين في النظرة للأمراض النفسية في مجتمعه (الخليفة وحامد، 2008).

ويعبر باعشر عن درجة عالية من الحساسية الثقافية في أربعة أوراق، الورقة الأولى موسومة " The influence of culture on psychiatric manifestations " التي نشرها عام 1963 في دورية متخصصة في الطب النفسي عبر الثقافي (Transcultural Journal)، والورقة الثانية موسومة (Relationship between traditional and modern medicine) والثالثة موسومة (The healing power of faith)، الرابعة موسومة (Religion and mental health). وفي تقديرنا، تعكس هذه الأوارق التي كتبت بعناية وعي الباحث بأهمية توطين مفاهيم ونظريات ومناهج الطب النفسي في البيئة المحلية. كما كان لباعشر اهتمام خاص بتاريخ الطب النفسي في السودان (History of the treatment of mental disorder in the Sudan) والعالم العربي (History of Psychiatry in the Arab countries) والمنشورة في (American Journal of Psychiatry)، وشرق أفريقيا (Mental health services in Eastern Mediterranean countries). وغالبا ما تحتاج عملية الوعي بالخصوصية الثقافية والحساسية التاريخية درجة عالية من عملية هضم وتمثيل دقيق للطب النفسي وعلم النفس. ويحتاج علماء النفس في السودان لتعلم بعض الدروس والعبر في تجربة باعشر في تميزه بالحساسية الثقافية في البحوث التي قام بنشرها . كما يعتبر باعشر من القلائل الذين جمعوا بصورة متفردة بين تخصص الطب النفسي وعلم النفس بنيله دراسات عليا في مجال علم النفس الطبي. وأشرف باعشر أثناء مسيرته العلمية على عدة رسائل وأطروحات في مجال الطب النفسي وعلم النفس . وعمل مع باعشر بعض رواد علم النفس منهم مالك بدري أب علم النفس في السودان ومؤسس الجمعية النفسية السودانية والذي اخترناه رمزا لعلم النفس في السبعينيات. وعندما حددنا مراحل علم النفس بعقد من الزمان كان الفرق بين عمر طه باعشر وعمر مالك بدري 10 سنوات ولد الأول عام 1922 بينما الثاني عام 1932. وكان علماء النفس في السودان يعملون بصورة منسجمة مع باعشر خلافا للتوتر السائد وغير المبرر بين علماء النفس والطب النفسي .

علـــم النفـــس في السبعينيـــات: بـــدري نموذجـــا

كانت هناك طفرات كبيرة في مشهد علم النفس بالسودان خلال السبعينيات حيث كان تأسيس أول قسم لعلم النفس التطبيقي بكلية التربية جامعة الخرطوم عام 1976، وبعد سنة أعقبه افتتاح قسم علم النفس بكلية الآداب عام 1977، فكان ذلك أول تخصص على مستوى البكالريوس من جامعة الخرطوم. وكان للمجموعة الأولى من أساتذة علم النفس في كلية التربية دور كبير في تطوير علم النفس وفرضه على واقع الجامعة والمجتمع، وتضم هذه المجموعة عمر بلال، محمود برات، مالك بدري، سعاد عتباني، والسر دوليب. ويمكن وصفهم في مسيرة علم النفس في السودان بمجموعة الرواد أو بجيل الأجداد، بينما في كلية الآداب كانت هناك مساهمات مقدرة لمؤسسي القسم أمثال عزيز حنان، وميلر ، وجون موصلي. ويلاحظ هنا بأن رواد علم النفس بكلية التربية كانوا من السودانيين بينما رواده الأوائل في الآداب من الأجانب. وفقا لملر كلف عزيز حنا أستاذ الأخلاق بتأسيس القسم وكان الزبير بشير ويوسف حسن يوسف وجين موصلي نواة هيئة التدريس بالكلية. وعندما غادر عزيز حنا أوكلت المهمة إلى ميلر الحائز على ماجستير الفلسفة وعلم النفس لاكمال تأسيس القسم كما تمت الاستعانة بطه أمير الذي كان وقتها يعمل بوزارة الصحة كما تولى ملر رئاسة القسم بعد مغادرة طه أمير حتى حضور الزبير بشير من البعثة عام 1983. وفي بداية القبول لقسم علم النفس بالآدب كان يشترط حصول الطالب درجة جيد جدا في اللغة الانجليزية والرياضيات. وكانت الدفعة الأولى تضم على سبيل المثال أحمد المصطفى، وعباس حسين، عائشة سلسلمن، سليمان محيسي، عبد الرحمن عثمان، عبيد الهدام، صلاح الجيلي، محمد عبد المجيد، و"المرحو"موسي فضيل (فرح، 2009).

وخلال هذه الفترة تم إنشاء أول معمل لعلم النفس كان يدرس به أستاذ مناهج من معهد العلوم والتكنولوجيا بسوسكس وهو بول جونسون وعين له أول ملازم من معهد الكليات التكنولوجية هو الأمين يوسف والذي تحول فيما بعد لشيخ وقور وامام مسجد محترم في قريته. وقد قام خريجو قسم علم النفس الأوائل وعلى الأقل خاصة في الدفعة الأولى والثانية والثالثة باجراء الكثير من التجارب العلمية الصارمة بمعمل قسم علم النفس فضلا عن كتابة تقاريرها . ولكن تدهور معمل علم النفس بعد مغادرة جونسون وتدهور معه لحد ما التفكير العلمي ومناهج البحث الصارمة فضلا عن ذلك كان يقوم بتدريس علم النفس عدد من العلماء من تخصصات مجاورة منهم محمد عبد الله الريح في سلوك الحيوان، وصالح في الانثروبولوجيا، وماهر علي في علم النفس التنظيمي، وبول واني قور في مناهج البحث والاحصاء وفي السنوات الأخيرة قل الاهتمام بهذه الجوانب في أقسام علم النفس الجديدة والبائسة وربما يمكن التساؤل أين علم نفس الحيوان؟ وأين تجارب علم النفس ؟ وأين علم النفس الانثروبولوجي؟ وكانت أهداف قسم علم النفس بكلية الآداب تقوم على ركيزة توطين علم النفس بتخريج كوادر تستطيع مواصلة دراساتها العليا في كل الأفرع النظرية والتطبيقية. وبدأ القسم بتدريس علم النفس الصناعي والتنظيمي بوزن لا يقل عن علم النفس الاكلينيكي (فرح، 2009). وظهر في تلك الفترة كتاب مالك بدري "أزمة علماء النفس المسلمين" والذي تلقفه طلاب علم النفس بشقف وكتب عنه طه أمير عدة مقالات نقدية بينما قلت لاحقا روح الشقف لقراءة الكتاب بين خريجي علم النفس. وهناك الكثير من أساتذة علم النفس في أرقى المراتب العلمية والادارية لم يقرأ كتاب "أزمة علماء النفس المسلمين" (بدري، 2009).

وفي تلك الفترة كذلك بدأ إدخال الخدمات النفسية للطلاب في جامعة الخرطوم كعمل متخصص وذلك في عام 1970م وعين الأستاذ السر دوليب كمشرف للطلاب. وفقا لكردمان (2003) كان لجامعة القاهرة فرع الخرطوم دورا في نشر وتدريس علم النفس وكان يدرس في إطار علم الاجتماع وكان للأستاذ رياض حنا دور كبير وإسهام مقدر في نشر مفهوم علم النفس. ويرى الزبير طه إلى ضرورة الاهتمام بتجربة جامعة القاهرة فرع الخرطوم في علم الاجتماع، فمن خلالها تم تقديم كثير من البحوث والدراسات في مجال علم النفس ولدكتور رياض حنا إسهامات كثيرة وعدد من البحوث عندما كان يدرس بالجامعة. وفي عام 1972 أقيم مؤتمر اتحاد أطباء النفس الأفارقة بقاعة القرشي وقدمت فيه ورقة عن الصحة النفسية للطلاب ، قدمها الدكتور آن ثيوبولد رثمار من مستشفي سنت كاثرين ببريطانيا. ولقيت هذه الورقة حوارا طيبا حضره عدد كبير من المهتمين بالقضايا الطلابية ... لقي هذا النهج قبولا لدي اتحاد طلاب جامعة الخرطوم أولا ونشرت مجلة الجامعة التي يصدرها الاتحاد مقالة للسر دوليب بعنوان :"الطالب الجامعي والصحة النفسية " ذكر فيها النص التالي: (إن النظرة إلى شئون الطلاب على أنها فقط إدارة يديرها إداريون لهم الإلمام الكافي بالأعمال الإدارية ، كما تقول الإعلانات يجب أن تكتسحها رياح التغيير ..). وأدى هذا الاتجاه المتصاعد نحو تبديل النظرة الإدارية البحتة التي علقت بقسم شؤون الطلاب إلى بلورة فلسفة جديدة لهذا القسم . وتحقيقاً لهذا الاتجاه أقيم مؤتمر شؤون الطلاب عام 1975م وتم تغيير اسم شؤون الطلاب إلى " عمادة الطلاب" وتغيير (WARDEN) إلى عميد الطلاب ويتم اختياره اليوم بالانتخاب من أسرة التدريس. وقد أضفى هذا الاتجاه عمقاً جديداً لخدمات الرعاية الطلابية وبرز إلى الوجود " قسم التوجيه والإرشاد النفسي والبحوث الذي " يقوم بالتوجيه الفردي والجمعي ويجري البحوث والنشر في هذا المجال . ويعمل القسم في تناسق تام مع أخصائي الطب النفسي بمركز الخدمات الصحية للجامعة الذي له عيادة منتظمة مرة كل أسبوع والذي قد وصل هذه الأيام في تطوره إلى درجة وجود " طبيب نفسي" دائم ضمن الفريق المعالج وهو يحول إلى عمادة الطلاب تلك الحالات التي ترى أنها تحتاج إلى توجيه اجتماعي (دوليب، 2002).

والطفرة الثانية لعلم النفس خلال السبعينيات أنه في عام 1971 اكتمل تطوير مستشفى الإرسالية بأم درمان بعد تخصصه في مجال الطب النفسي وافتتح بعد تسميته بمستشفى التجاني الماحي تخليدا لذكرى ذلك العبقري رائد الطب النفسي في السودان وأفريقيا. وبعد سنة من افتتاحه عام 1972 شهد المستشفي إقامة المؤتمر الأفريقي الثالث للصحة العقلية والنفسية والذي شارك فيه عدد كبير من الخبراء والعلماء الأجانب في مجال العلاج النفسي. وأقيم المؤتمر بداخل المستشفي لتحقيق التواصل المباشر مع الوسط المعني بالمؤتمر وهم مرضي العصبية والنفسية. ومن بين التطورات خلال هذه الفترة بروز الحاجة لخدمات علماء النفس إذ تم تعيين مجموعة من المعالجين النفسيين بمستشفيات الطب النفسي. في عام 1977 تم انشاء قسم علم النفس بكلية التربية بجامعة جوبا ضمن العلوم التربوية حيث يدرس بالقسم مقررات علم النفس التربوي، وعلم نفس النمو، وعلم النفس الاجتماعي بالإضافة إلى مقدمة في علم النفس ونظام الدراسة هو النظام الفصلي (سليمان، 2006). وفي هذه المرحلة من مراحل علم النفس في السبعينيات نحاول أن نلقي الضوء على أحد رواد علم النفس في السودان وقد تم اختيارنا لمالك بدري. ونتيجة لقوة تأثيره في مسيرة علم النفس يمكن أن نطلق عليه لقب "أب علم النفس في السودان". ولمزيد من المعلومات البيوغرافية الخاصة ببدري أنظر الخليفة (2003، 2009).

في السودان، عمل بدري مديرا لوحدة الإرشاد والتوجيه بجامعة أم درمان الاسلامية بالسودان في الفترة بين 1967-1971. وفي الفترة بين 1977-1980 أصبح عميدا لكلية التربية بجامعة الخرطوم ورئيسا لقسم علم النفس التطبيقي بها. وفي عام 1983-1984 عين عميدا لكلية التربية ومديرا بالإنابة لجامعة جوبا بالسودان. وأعيد تعيينه أستاذا لعلم النفس بجامعة الخرطوم في الفترة بين 1985-1992. وفي نفس السنوات أسس كلية الدراسات الإسلامية وكلية التربية بجامعة أفريقيا العالمية بالسودان (الخليفة، 2003). كما أسس وترأس بدري "الجمعية النفسية السودانية"، وانتخب رئيسا "للرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين" منذ عام 1997. واختير عضوا في عدد من هيئات تحرير الدوريات الإقليمية والعالمية مثلا "المجلة العربية للطب النفسي" (الأردن)، و"المجلة المصرية للدراسات النفسية"، ومجلة "النفس المطمئنة"، ومجلة "المسلم المعاصر" (مصر)، ومجلة جامعة الأحفاد (السودان)، ومجلة (Changes) (بريطانيا).

كما نشر بدري 16 كتابا في علم النفس باللغتين العربية والإنجليزية. وبعد حوالي 13 سنة من نيله درجة الدكتوراه وبعد 10 سنوات من بداية نشر الأبحاث العلمية وتراكم الخبرات والمعلومات السيكولوجية بصورة كافية بدأ بدري في نشر كتب علم النفس. إذ ابتدرها بالكتب الجامعية مثل "علم النفس العام" . أما أكثر كتبه والتي تركت أثرا كبيرا حول العالم ونشر وترجم باللغة العربية والإنجليزية والتركية والأردية، الماليزية هو كتاب "أزمة علماء النفس المسلمين" والمشهور بالمعضلة (بدري، 1987) وفي السنة ذاتها نشر بدري كتاب ترقية وتطوير الطب الشعبي . أما أهم كتبه المعاصرة "معضلة الإيدز: منظور إسلامي اجتماعي ثقافي" (Badri, 2000) والذي يدرس في أقسام طب المجتمع مثلا في باكستان والسودان واليمن. ويعكس الكتاب مع بقية مؤلفات بدري ريادته لحركة توطين علم النفس، ليس في السودان فحسب، وإنما في العالم الإسلامي. ومن جهة أخرى يعتبر الكتاب ثمرة لتبصراته السيكولوجية وجهوده الجبارة في البحث السيكولوجي. ونتيجة لريادته لحركة الأسلمة أو التأصيل أو مقاربة الإتقان أو التوطين من خلال أبحاثه، ومقالاته، وكتبه، وأحاديثه، ومناقشاته وتجاربه الاكلينيكية استلهم مجموعة من علماء العلوم الاجتماعية عامة وعلم النفس حول العالم لرفض قبول مفاهيم ونظريات ومناهج علم النفس الغربي والمستورد من غير نقد. ولم يكتف بدري بذلك بل ناقش كيفية تعديل علم النفس ليناسب البيئة المحلية "التوطين الخارجي". يمثل بدري في علم النفس نموذج تحديثي جديد استلهم فيه ما هو

شرعي وتراثي من جهة وما هو جديد وحديث من جهة أخرى. وفي فلسفة بدري بأنه مع عملية استقبال علم النفس المستورد يجب أن يصاغ نموذج من علم النفس يراعي اتجاهات وقيم ومعتقدات الأفراد لأنفسهم وسلوكهم وللكون في العالم العربي والإسلامي . ويعتبر بدري نموذجا للباحث الصبور والباحث السلطة والباحث الثقة وبكل الأوصاف هو باحث من الطراز الأول. ومقارنه بجيله فهو حداثي في معظم آرائه السيكولوجية ويبحث عن المحلية في تفكيره السيكولوجي كما يبحث عن العالمية في ذات المستوي. وربما في وعي بدري النهائي بأنهما مكملان لبعض وليس متنافران بالرغم من حديثة عن "صراع الحضارات" في الوقاية من الإيدز. ويوصف بدري بالعمل المتواصل ومجموعة كبيرة من الذين في عمره في العالم العربي توقفوا عن الإنتاج السيكولوجي ما بعد الحصول على الأستاذية. ولكن أعمال بدري الأكثر تأصيلا وإبداعا كانت ما بعد الأستاذية. الجدير بالذكر يبلغ بدري من العمر حاليا حوالي 75 عاما وما زال منتجا غزيرا وأصيلا في أبحاثه. ويوصف بأنه كان يعمل لساعات كثيرة من الليل والتدريس بحماس في الصباح. كأنما جاء بدري قبل عصره في علم النفس في السودان (الخليفة، 2003، 2009).

تعمل مؤلفات بدري مجتمعة على تحقيق هدفين إنها تدفع عملية توطين علم النفس للأمام لأنه باحثا بارعا لا يمكن مهما كان تجاهل إسهاماته. ثانيا ومن خلال هذه المؤلفات المصاغة بعناية والتي تعكس نتائج أبحاثه وملاحظاته قدم مفاهيم ونظريات وتقنيات جديرة بالمناقشة من قبل طلاب توطين علم النفس. وأصبح مؤلف بدري الكلاسيكي عن "المعضلة" أو "المأزق" معلما لأجيال ليس من علماء النفس في السودان فحسب وإنما في العالم العربي وتركيا وباكستان وماليزيا وأندونيسيا وأمريكا وبريطانيا. وبوسعنا التساؤل لماذا هذه الدرجة الكبيرة من التأثير بالنسبة لمالك بدري؟ ربما يمكن القول كثير من علماء النفس يحلقون خارج السرب ولكن بدري يعالج قضايا ساخنة ومثال لذلك كتاب الإسلام والكحول وكتاب أزمة الإيدز وتبعا لذلك القول بأنه يطرق على الحديد وهو سخن. وسبب أخر لجاذبية بدري هو تنزيل مفاهيم علم النفس العلمية للواقع المحلي وهو نموذج لتبسيط علم النفس الذي نحتاج إليه في السودان، خلافا لعلم نفس البرج العاجي وعلم نفس الرطانة. وسبب آخر إن لبدري "قرنا استشعار" قوية أو حساسية غير متناهية لروح العصر السيكولوجي. إن كتابات بدري هي نماذج للكتابات التي تصلح لرسم السياسات وبذلك هو مثال للمفكر الاستراتيجي أو الاستخطاطي في العالم العربي (الخليفة، 2003، 2009). وقد تم ترجمة كتابه للايدز بصورة ممتازة من الانجليزية للعربية كما عرض الكتاب في حلقات في صحيفة الرائد اليومية كمجابهه لقضايا الايدز في السودان.

ولكن نتيجة لثلاثة أسباب منها النفسية، والمتعلقة بهياكل علم النفس، فضلا عن العوامل المكبرة لا يكون استعداد السودان لتطوير علم النفس الوطني مؤثرا في العالم العربي الاسلامي. بالنسبة للعوامل النفسية يعتبر الأفراد أو الشخصيات في ظل الثقافة السودانية في حالة من الزهد في ترقية الذات أو تزكيتها وربما يرجع ذلك لأسباب متعلقة بطبيعة التصوف في السودان. مثلا لا يتحدث علماء النفس في السودان عن إسهاماتهم في علم النفس كما لا تجري دراسات بيوغرافية عن علماء النفس كما لا يشارك علماء النفس كثيرا في المؤتمرات . يقول المثل السوداني "شكار نفسه إبليس" ويعني من يشكر أو يرقي نفسه إنه كمثل إبليس. وثانيا نتيجة للاهتمام الكبير بتدريس علم النفس على حساب البحث العلمي، وفقر التدريب، وضعف الإمكانيات المادية في أقسام علم النفس، وهجرة أساتذة علم النفس، ومحدودية المشاركة في اللقاءات السيكولوجية الإقليمية والعالمية، ولضعف النشر في السودان بالنسبة للكتب وللأبحاث والمقالات التي يقوم بها تلامذة كل من بدري وطه سببا في عدم الاستفادة من عملية الاستعداد لتطوير علم النفس . وثالثا : العوامل المكبرة كالتردي الاقتصادي، وعدم الاستقرار السياسي ، وهامشية السودان يجعل هذه الاستعداد لتطوير علم النفس الوطني غير مؤثر بصورة كافية في العالم العربي.

علـــم النفـــس في الثمانينيـــات: طـــه نموذجـــا

في مشهد علم النفس في الثمانينيات قامت مجموعة عظيمة من علماء النفس الذين تلقوا تدريبهم بالخارج خاصة بريطانيا وفرنسا وأمريكا مثل طه أمير، والزبير بشير، ويوسف حسن يوسف، وشمس الدين زين العابدين، ومحمد عبد العظيم بكلية الآداب، وكبشور كوكو، ويحيى هارون، وسعاد العتباني بكلية التربية جامعة الخرطوم، وطيفور البيلي بالجامعة الاسلامية، وبابكر بدري وقاسم بدري والسر دوليب بالأحفاد. فضلا عن التدريب الرفيع يلاحظ بأن هناك انسجام بين هذه المجموعة المبكرة والعظيمة من علماء النفس في السودان في ترقية أقسام علم النفس، وفي الاشراف على طلاب الدراسات العليا، وفي عمليات التأسيس لهياكل وبنيات علم النفس بصورة متوزاية في المؤسسات التي ينتمون لها. وقد تربت هذه المجموعة من آباء علم النفس بقيم مهنية رفيعة في علم النفس كما بالنسبة لرواد علم النفس في السبعينيات. ويمكن القول بأنها كانت مجموعة داعمة لطلابها وتجمعهم عمليات التدريب الرفيع بالخارج، والخبرات العالمية التي اكتسبوها، والخصوصية الاجتماعية أو الحساسية الثقافية التي يتميزون بها ربما تولدت من خلال المقارنات الثقافية أو عبر الثقافية أثناء تدريبهم بالخارج، وفوق كل ذلك يتميزون بأخلاقيات علمية صارمة فضلا عن شغفهم بالتدريس ومساعدة الطلاب بصورة غير محدودة ومنهم من يقدم حتى الدعم المادي لطلابهم. وربما تقل الصراعات والحساسيات وسط هذه المجموعة العظيمة ربما مقارنة بمجموعات لاحقة تدربت بالداخل. والتفسير المحتمل للانسجام بين أفراد هذه المجموعة من آباء علم النفس هو وحدة التدريب الرفيع بالخارج بالرغم من اختلافات المدارس البريطانية والفرنسية والأمريكية. وقد تعلم كاتبا الدراسة الكثير من هذه المجموعة العظيمة من علماء النفس بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة. وخلال فترة الثمانينيات زاد عدد الطلاب المسجلين والخريجين بأقسام علم النفس ربما نتيجة للأخلاقيات المهنية الرفيعة التي تميز بها جيل الآباء أو برزت الحاجة لهم خاصة في المؤسسات التعليمية والعلاجية.

وربما يتم التساؤل هل قامت هذه المجموعة المبكرة التي أطلقنا عليها آباء علم النفس بنقل هذه القيم المهنية والأخلاقية الرفيعة بالنسبة للطلاب الذي قاموا بتدريسهم وتدريبهم على مستوى البكالريوس والدراسات العليا؟ أم ليست هناك استجابة لهذه القيم والأخلاقيات من قبل **بعض** طلاب نهاية وبداية الألفية؟ فمن المستحيل على جيل الآباء من علماء النفس مثلا طباعة بحث ماجستير ودكتوراة لطالب مقابل أجر مادي كما تعمل السكرتيرات، أو القيام بتحليل احصائي مقابل جباية مادية كما يعمل تجار الاحصاء، أو قراءة ومراجعة مخطوط وبحث تراث مشكلة بحثية في الانترنيت بقيمة مدفوعة الأجر. وربما من النادر التكالب البشع حول غنائم الاشراف على طلاب الدراسات العليا خاصة الطلاب الأجانب (العرب) الذين يدفعون بالدولار الأمريكي، أو الصراع المخزي حول تدريس مقررات بعينها لطلاب السنوات النهائية والعزوف عن تدريس مقررات محددة في علم النفس لارتباط الأولى لاحقا بالدراسات العليا وبمصالح مادية محسوبة (الخليفة، 2009). ولكن يمكن القول بأن هناك مجموعتين من الطلاب الذين تدربوا على يد آباء علم النفس خاصة خلال الثمانينيات مجموعة الذين أكملوا دراساتهم العليا بالداخل ومجموعة الذين أكملوا دراساتهم العليا بالخارج. وربما يمكن القول بأن كل الذين تدربوا بالخارج من جيل الأبناء اكتسبوا أخلاقيات علم النفس الرفيعة من جيل الآباء ربما تجمعهم وحدة التدريب الرفيع بالخارج خاصة في أمريكا وبريطانيا بينما بعض الذين تدربوا بالداخل لم يكتسبوا هذه القيم من جيل آباء علم النفس. ويجب عدم التعميم بصورة مطلقة عن عملية اكتساب أخلاقيات علم النفس بين مجموعة الداخل ومجموعة الخارج، فهناك استثناءات والاستثناء لا يكذب القاعدة.

ومن التطورات الكبيرة لعلم النفس خلال الثمانينات ترفيع دبلوم علم النفس المقدم لخريجات علم النفس بكلية الأحفاد إلى منح درجة بكالوريوس علم النفس في العلوم والآداب عام 1984. وتعتبر الأحفاد من أكثر المؤسسات التي تخرج طلابا من حيث العدد في مجال علم النفس. وفي جامعة أم درمان الاسلامية بدأ تدريس علم النفس في عام 1970 ولكن تم إنشاء أول قسم لعلم النفس بالجامعة في عام 1986 تحت رئاسة طيفور البيلي الذي درس بأمريكا ووضع هياكل وبينات علم النفس بالجامعة الاسلامية. واستقر به المقام في كندا ويعمل خبيرا بسلطنة عمان. ولكن ظل قسم علم النفس بالجامعة الاسلامية فيما بعد متنقلا بين الكليات ضمن كلية العلوم الاجتماعية والاقتصادية إلى الآداب ثم التربية واستقر أخيرا بكلية الآداب، وتخرجت أول دفعة من خريجي علم النفس عام 1988. وخلال فترة طيفور البيلي تم تعيين أول مساعدي تدريس بالقسم وهما عبد الله عبد الرحمن والنور النعيم الذين تدربا فيما بعد في بريطانيا بنيل درجة الدكتوراة في علم النفس. ويعمل الأول حاليا بالامارات والثاني بقطر. ومن التطورات الأخرى خلال الثمانينيات بداية تدريس علم النفس بجامعة الجزيرة بصورة جزئية منذ إنشاء كلية الطب، حيث تم تدريس مقررات في الصحة النفسية وعلم نفس الشواذ ضمن منهج كلية الطب و تعاون في تدريبه أطباء نفسيين وعلماء نفس، منهم الزبير طه وفيما بعد عبد الباسط ميرغني وفتيحة عمر. و بتأسيس كلية التربية بالجامعة عام 1985 تم تعيين أول محاضر لعلم النفس بالجامعة عام 1987 وهو احمد شنان الذي أكمل دراسته للبكالوريوس والماجستير بجامعة الخرطوم، وفيما بعد الدكتوراة ببريطانيا، ونال الاستاذية في عمر مبكر في علم النفس عام 2007. وحيث وضع مقررات علم النفس لطلاب التربية وشملت علم النفس العام ، سيكولوجية التعلم ، علم النفس الإسلامي ، علم نفس النمو ، و القياس و التقويم . ومنذ ذلك الحين ظلت دائرة علم النفس بقسم التربية تتولى تدريس و تدريب الطلاب على مستوى الدبلوم العالي في التربية وماجستير علم النفس التربوي الذي تخرج منه حتى عام 2007 حوالي 55 طلاب ماجستير و 9 طلاب دكتوراه (شنان، 2005، 2008).

وخلال الثمانينيات شهد مستشفى التيجاني الماحي تكوين منتدى ابن سينا للصحة النفسية عام 1984 والذي ضم الفريق العامل بمستشفي الطب النفسي بالخرطوم، والتيجاني الماحي، وعيادة بحري العصبية، وبعض العاملين بالجامعات في مجال علم النفس. ويعتبر هذا المنتدى تطورا حقيقيا ونقلة ملموسة في تاريخ العلاج النفسي في السودان انبثقت منه فكرة دبلوم علم النفس العلاجي حيث تم استيعاب أول دفعة بجامعة الخرطوم عام 1986 وساهم هذا الدبلوم في تدريب طلاب علم النفس كما ساهم في تطوير الخدمات العلاجية (بدري ،2006 ، كردمان ، 2003). وبناءا علي تجربة جامعة الخرطوم تم تطوير بعض الدبلومات العليا في علم النفس فيما بعد مثلا دبلوم ذوي الاحتياجات الخاصة بجامعة النيلين.من جانب آخر أكدت حرم بدري (2006) أنه في أوائل الثمانينيات تم تعيين دفعة من المعالجين النفسانيين بمستشفى التيجاني الماحي كمركز ومن هناك وزعوا على كل من عيادة العصبية بحري و أم درمان بالإضافة إلى مستشفى التيجاني الماحي. وقد كان النظام حينها أن يتنقل المعالج النفسي والطبيب النفسي بين جميع المستشفيات.

وكان هناك تبادل في الخبرات بين المؤسسات العلاجية مثال لذلك البحث " المخدرات وسط نزلاء السجون " و الذي كان تحت إشراف مجموعة من الصيادلة الفاتح ادريس وحامد منان ، طلبوا فيها مساعدة المعالجين النفسانيين منهم الهام لطفي، ومنى محي الدين، وعلى فرح، والمنتدبين من العصبية بحري في مصحة كوبر، وكان على فرح رئيسا لقسم الصحة النفسية بالمصحة وكذلك رئيسا لفريق البحث. وتم انجاز البحث من حيث توفير الأدوات والعينة والبيانات فضلا عن المعالجة الاحصائية (فرح، 2009) وذكرت الهام لطفي أنه في الفترة 1985- 1986 تم تخصيص وحدة خاصة بالعلاج بمستشفى الخرطوم قام بتأسيس الوحدة الأخصائيين النفسانيين عبد الله أحمد برير وموسى فضل (عليه الرحمة)وهم أول خبراء نفسانيين يعملون بمستشفى الخرطوم بانتداب من وزارة الصحة. ومن المنتديات المهمة والتي لعبت دورا كبيرا في نشر المعرفة السيكولوجية منتدى الصحة النفسية بمصحة كوبر والذي بدأ في نهاية الثمانينات. وأقيمت في المنتدى سلسلة من اللقاءات الاسبوعية المسائية والي يؤمها علماء النفس وبعض الضباط والأطباء والمهتمين بالصحة النفسية في العلوم المجاورة والعلوم الشعبية. ومن بين المحاضرين الذين يتذكرهم كاتب الدراسة الشيخ النيل أبو قرون والفريق أبوحراز. وكانت هناك مناظرات ومجادلات حامية بين المشاركين ولكن بوسعنا التساؤل لماذا خبأت جذوة هذه المنتديات في بداية الألفية؟

وفي الثمانينيات هناك عدة محاولات تمت بخصوص ترجمة وتكييف (تقنين) المقاييس السيكولوجية وربما يكون أهمها الترجمة والتكييف السوداني لمقياس وكسلر لذكاء الراشدين– المعدل (الخليفة، 1987). وكانت هذه المحاولة نتيجة للانتقادات التي وجهت إلى القياس النفسي لتأثره بالعوامل الثقافية. ولتجاوز هذا الانتقاد قام الخليفة بإجراء ترجمة أولية للاختبارات اللفظية من المقياس وهناك بعض المشاكل النظرية والعملية التي واجهت الترجمة تمثلت في مدى ثبات المعاني لبعض الأسئلة الأصلية حين تترجم إلى العربية وكذلك عدم وجود بعض المفاهيم في الثقافة العربية التي تعبر بدقة عن بعض المفردات الأمريكية. و تم تجاوز المشكلة النظرية المتعلقة بثبات المعاني بمفردات جديدة من البيئة المحلية وذلك بدلا من عملية إيجاد المعني المقابل أو الموازي للمفردة الأمريكية. إن المفاهيم التي تطورت في ثقافة ما ستكون أقل فاعلية في التفاعل مع عقول الثقافات الأخرى ويرجع السبب في ذلك إلى أن المفاهيم لا يمكن استيرادها لأنها تعكس قيم الثقافة وشؤونها التي تطورت فيها العلوم. وربما تحتوي هذه المفاهيم علي آراء تعمل علي تشويه الإدراك وإعاقة الفهم العميق عندما تطبق في ثقافة أخرى. أما بالنسبة للمشكلة العملية للاختبارات الأدائية فقد تم تجاوزها بعملية التكييف، وذلك بتأليف قصص واختيار صور جديدة تتلاءم مع البيئة المحلية. وقد قام الباحث بتغيير وتعديل لبعض اختبارات رسوم الصور وتكميل الصور فمثلا تم تغيير كلي في مضمون وشكل خمس قصص من مجموع عشر قصص. وقد تم تأليف سيناريوهات (قصص جديدة) من البيئة المحلية عوضاً عنها وتم تطبيق المقياس المعدل على عينة قدرها 801 فردا في الفئات العمرية 16-75 من الذكور والإناث من أقاليم السودان الشمالية. ولم يتم تطبيق المقياس في جنوب البلاد لعوامل ثقافية و لغوية. ونشرت دراستين من مشروع البحث دراسة بالمجلة العربية للتربية بتونس وأخر بجامعة أكسفورد في دورية (Journal of Islamic Studies) (Khaleefa & Ashria, 1995).

وفي ذات الإتجاه أجرت مها البشير (2005) دراسة لتقنين مقياس ستانفورد بينيه للذكاء بما يتناسب مع البيئة السودانية. بلغت عينة الدراسة 4950 مفحوصاً من الجنسين والفئات الخاصة من سنة 6 سنة فما فوق. وهدفت الدراسة إلى معرفة القدرات العقلية للمفحوص من انتباه وتركيز وإدراك كلي وجزئي وتذكر عملي أو لفظي ... الخ بالإضافة إلى القدرات الفعلية المعرفية كنقطة رئيسية في البحث باعتبار أن معرفة هذه القدرات يمكن التوصل إليها عن طريق المقياس المعدل مساعداً في ذلك تحديد الدرجة المعيارية المتوصل إليها في الاختبار المعدل. وكشفت النتائج أن المقياس بعد عملية تقنينه يتمتع بدرجات مقبولة من الصدق والثبات. كما حقق المقياس معامل ارتباط مرتفع بمقياس بينيه الصورة الرابعة المصرية بلغت (0.96) ، ومعامل ارتباط بوكسلر السوداني للراشدين (0.68) وبذلك يعتبر المقياس بصورته الراهنة بعد التعديل والتقنين صالحاً لقياس معدل الذكاء في السودان. ويعتبر مقياس بينيه للذكاء مع مقاييس وكسلر من أكثر المقاييس الفردية استخداما في المجالات العلاجية والتربوية والبحثية في السودان.

ومن المحاولات المهة كذلك في مشهد علم النفس في الثمانينيات تكييف مقياس وكسلر لذكاء الأطفال–المعدل (حسين، 1988). فقد أجريت أولا ترجمة للمقياس ومن ثم تمت عملية تحويره وتعديله كي يتناسب مع البيئة الجديدة. وأجريت بعض التعديلات في الاختبارات اللفظية والعملية وتفاوتت من كلية إلى جزئية. وطبق المقياس المعدل على عينة عشوائية بلغت 330 طفلا موزعة على الأقاليم المختلفة من السودان باستثناء الأقاليم الجنوبية. وأظهرت نتائج الدراسة بأن هناك تقارب بين المنحنى التجريبي لنسب الذكاء في السودان والمنحنى التجريبي في أمريكا. ولم تكشف الدراسة عن فروق نوعية ذات دلالة احصائية في معدل الذكاء بين الذكور (101.3) والاناث (99.4) فضلا عن التزايد الطردي لمعدلات الذكاء بازدياد الأعمار في الاختبارات اللفظية والعملية والكلية. فعلى سبيل المثال نالت الفئة العمرية 6-7 سنوات متوسط ذكاء (83.31) درجة، 9-10 سنوات (99.65) درجة، بينما الفئة العمرية 16-17 سنة أحرزت (108.70) درجة. ويعتبر مقياس وكسلر لذكاء الأطفال–المعدل من أكثر المقاييس السيكولوجية التي تم استخدامها في المجالات التطبيقية في علم النفس في نهاية الثمانينيات وبداية التسعينيات. وبالرغم من أهمية الدراسة من ناحية نظرية وعملية لكن لم تتم عملية نشر أوراق عن نتائج المقياس في الدوريات العلمية المحكمة على المستوى المحلي والاقليمي والعالمي.

لقد اخترنا سابقا ود ضيف الله كرمز لماضي علم النفس، وباعشر كرمز لعلم النفس الطبي خلال الستينيات، ومالك بدري كجد لعلم النفس في السبعينيات، وبذات القدر يمكن اختيار الزبير طه ولقوة تأثيره في مسيرة علم النفس كرمز لعلم النفس في الثمانينيات. ولد طه عام 1945 بعد 13 سنة من ميلاد بدري عام 1932. وعندما كان طه شابا في السنة الأولى بالجامعة ترقى بدري لمرتبة الأستاذية في علم النفس عام 1971 وبذلك يعتبر طه تلميذ لمالك بدري بنفس القدر الذي كان فيه بدري تلميذا لباعشر. ففي مسيرة طه الأكاديمية، قام بتدريس مقررات متباينة لطلاب علم النفس على مستوى البكالريوس بجامعة الخرطوم وعلى مستوى الدرسات العليا، درس عدة مقررات لطلاب الدبلومة العليا في علم النفس الاكلينيكي. وعلى مستوى تدريب طلاب الدراسات العليا أشرف على أكثر من 50 طالبا في علم النفس منهم 30 طالبا على مستوى الدكتوراه و20 طالبا على مستوى الماجستير في موضوعات مختلفة في علم النفس (الخليفة، 2006، 2009).

وقام طه بعدة أنشطة مهنية أخري في مجال علم النفس تمثلت في رئاسة تحرير مجلة "دراسات نفسية" التي تصدرها الجمعية النفسية السودانية، وعضوية الهيئة الاستشارية ل "المجلة الأفريقية لعلم النفس الاكلينيكي" 1984، وعضو الهيئة الاستشارية لمجلة "تفكر" التي تصدر عن معهد اسلام المعرفة بجامعة الجزيرة. كما عمل مستشارا نفسيا لمشروع الصحة المدرسية في الخرطوم 1983-1985، وسكرتيرا للمنظمة القومية السودانية لرعاية الأحداث 1985-1988، وعضو مجلس قرية الأطفال بسوبا الخرطوم، 1986-1988، وكبير أخصائي العلاج النفسي بالخدمات الصحية بجامعة الخرطوم، 1984-1987، وخبيرا نفسيا بوحدة الطب النفسي بمستشفى الخرطوم 1984-1986، كما عمل رئيسا للجنة تطوير دبلوم علم النفس الاكلينيكي فضلا عن ماجستير علم النفس الاكلينيكي بجامعة الخرطوم، كما أشرف على لجنة تطوير القوانين والنظم الأساسية ولوائح أكاديمية الشرطة بجامعة الرباط 1999. وعلى مستوى منظمات علم النفس عمل رئيسا للجمعية النفسية السودانية منذ عام 1998 كما انتخب رئيسا للرابطة العالمية لعلماء النفس المسلمين في عام 2003. وعملت هاتان المنظمتان على لقاء علماء النفس بعضهم البعض في داخل وخارج السودان وذلك للتواصل والتخطيط وتبادل الأفكار ونشر المعرفة السيكولوجية (الخليفة، 2009).

بعد عودة طه من البعثة الدراسية ببريطانيا عام 1982 توافد عليه طلاب الدراسات العليا زرافات ووحدانا من داخل وخارج السودان للتحضير معه في علم النفس على مستوى الماجستير والدكتوراة. ولكن بوسعنا التساؤل لماذا لم تنعكس عملية اشراف طه على كم هائل من رسائل الماجستير والدكتوراة في بحوث منشورة بالاشتراك مع طلابة كما جرت العادة في الغرب أو في بعض الدول العربية؟ هل تكمن الاجابة في طبيعة الثقافة السودانية والتي توصف في أحايين كثيرة بالشفاهية والتي لا تعطي أهمية أو قدرا كبيرا للثقافة الكتابية والتوثيقة. ونتساءل كذلك في جانب آخر لماذا لم تؤثر الاهتمامات البحثية المبكرة لطه – سواء أكان على مستوى تدريبه في الدراسات العليا في بريطانيا أو مستوى ابحاثه المنشورة في علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس التجريبي خاصة – على طلابه في الدراسات العليا في علم النفس بخلاف رسالة واحدة عن افراز الغدة الدرقية؟ ربما تكمن الاجابة في نوعية التدريب بالنسبة لعلماء النفس العرب في الغرب. إذ يتدرب هؤلاء الباحثين على تقنيات عالية في البحث العلمي في الجامعات الغربية في معامل علم النفس الفسيولوجي ، ومخابر الفيزياء، ومعامل التشريح ولكن عند العودة يصطدم هؤلاء الباحثين بعدم توفر البيئات البحثية المثالية التي تدربوا عليها. ولهذا السبب لم يتم استقبال علم النفس التجريبي أو علم النفس البحت في السودان انما تم استقبال علم النفس التطبيقي بصورة أفضل. ولذلك كان تأثيره على طلابه هائلا في المجالات التطبيقية والثقافية لعلم النفس. وملاحظة أخرى جديرة بالاهتمام بأنه كان موسوعيا في علم النفس إذ قام بالاشراف على طلاب الدراسات العليا في معظم أفرع أو موضوعات علم النفس. ربما يكون هذا النوع من الاشراف الموسع هو الذي نحتاج له في هذه المرحلة من مراحل تطور ونمو علم النفس في السودان أكثر من الأبحاث الذرية والتخصصية الضيقة (الخليفة، 2009).

نقل طه شغفه بالتدريس والبحث والإشراف والممارسة الاكلينيكية إلى مجموعة من طلابه المبكرين. وجذب قسم علم النفس في الثمانينيات بجامعة الخرطوم عشرات الطلاب الذين برزت أسماؤهم فيما بعد في خارطة علم النفس في السودان وفي بعض الدول العربية. ويمكننا القول بصورة مأمونة بأن اشراف طه أعطى دفعا حاسما لمسيرة علم النفس يمكن تقديره خاصة من خلال قائمة طلابه الأوائل الذين حظوا باهتمام أكبر منه. ومن قوة تأثيره على مريديه اصبح البعض منهم باحثين متميزين أو مشرفين بارعين على طلاب الدراسات العليا يعطون الإجازة العلمية لآخرين في علم النفس. ومن بين هذه المجموعة الأولى في الثمانينيات، على سبيل المثال لا الحصر، أحمد شنان في علم نفس النمو والصحة النفسية بجامعة الجزيرة وهو أول طالب نال درجة الماجستير من الذين أشرف علي رسائلهم عام 1986، ومحمد محجوب هارون في علم النفس السياسي والذي برز كخبير في مجال الاعلام خاصة، وعمر هارون الخليفة في الذكاء والابداع والموهبة، ومحمد صلاح خليل في علم النفس المعرفي– العصبي، وعبد الواحد في علم النفس العصبي، وأحمد المصطفى في علم النفس العصبي والاكلينيكي، وعباس العبيد خبير التنيمة البشرية في علم النفس الصناعي، وعبد الله عبدالرحمن في علم النفس الصحي، والنور النعيم وعبد الرحمن عثمان في علم النفس الاكلينيكي، ونجاة فتحي في علم النفس الطبي بجامعة أوهايو بأمريكا. ويلاحظ بأن هذه المجموعة من علماء النفس نتيجة للعناية المركزة فقد تمثلوا قيم وأخلاقيات استاذتهم آباء علم النفس ونال غالبيتهم درجاتهم العليا في بريطانيا وامريكا.

كرس طه فترته بقسم علم النفس بجامعة الخرطوم لبناء هياكل علـــم النفس في الثمانينيات وسوف يظل الأكثر تأثيرا في تاريخ علم النفس في السودان. وخرج علم النفس بفضل مساهماته من "رحم" شعبة علم النفس بجامعة الخرطوم إلى رحاب الجامعات الأخرى. إن مساهمة طه الكبيرة

في بناء علم النفس في الخرطوم بالسودان ربما تشبه مساهمة فونت في بنائه لعلم النفس في مدينة لايبزج بألمانيا. بينما تمثل مساهمة بدري مساهمة هلمهولتز في تأسيس البصريات الفسيولوجية في ألمانيا. الجدير بالذكر لقد تدرب فونت في معمل أستاذه هلمهولتز في ألمانيا ويطلق طه على بدري لقب استاذه كذلك في علم النفس. ووجه شبه آخر بين فونت في ألمانيا وطه في السودان بأن الأول كتب في بداية حياته العلمية كتاب "علم النفس الفسيولوجي" وكتب في السنوات الأخيرة من حياته عدة مجلدات عن "علم النفس الفلكلوري". بينما نشر طه أبحاثه المبكرة عن علم النفس الفسيولوجي وأبحاثه الأخيرة عن علم النفس في التراث الشعبي. وسوف يكون تاريخ علم النفس في السودان مدينا لمساهمة بدري وطه العملاقة في علم النفس. ونسبة لقوة تأثيرهما على طلاب علم النفس جعلت بعض الباحثين يتحدثون عن "مدرسة الخرطوم لعلم النفس" التي تأثرت بالثقافات الأفريقية والعربية والإسلامية. فقام طه عبر محاضراته وبحوثه وتلاميذه بتطوير المعرفة بعلم النفس والعمل على توطينه في السودان وتبني الدعوة لجمع مجهودات واسهامات علماء النفس في السودان والعمل على بلورتها بصورة تمكن من إعطاء ملامح لمدرسة سودانية في علم النفس (كردمان، 2003). ومن أهم مؤلفته "علم النفس في التراث العربي الاسلامي (طه، 1995) والذي يعبر ملاح مدرسة الخرطوم خاصة التأثير الاسلامي لها. ربما تعبر هذه المدرسة من ناحية سيكولوجية عن السلوك والتفكير والوجدان السوداني، وبلغة أخرى ربما تعكس الذاكرة الجماعية لمختلف التاثيرات الثقافية السودانية في حقب تاريخية مختلفة من حضارات كوش وكرمة ونبتة ومروي والفترة المسيحية والاسلامية. وفقا لهذا المنظور فمدرسة الخرطوم في علم النفس ربما تكون مثال لسودنة علم النفس بحثا عن هوية محلية تراعي الحساسية الثقافية لسلوك الأفراد والجماعات. ولكن بوسعنا التساؤل هل انبثقت هذه المدرسة نتيجة لصراع مع علم النفس الغربي أم نتيجة لعوامل داخلية بحتة ترتبط بشدة الالتزام بالواقع المحلي؟ أم هي استجابة لتحقيق مصالحة ما بين الداخلي والخارجي وبين الوافد والوطني؟ هل هناك بيان او منفستو يعكس فلسفة هذه المدرسة من حيث ما هي وماذا وكيف ومتى وأين؟ أم هي مجرد صدى لمدرسة الخرطوم في الفن التشكيلي؟

علـــم النفـــس في التسعينيـــات: بنيـــات وهياكـــل علـم النفـــس

ونسبة لغياب مؤلف الدراسة الأول من السودان منذ بداية التسعينيات وعدم متابعته لتطورات مشهد علم النفس خلال تلك الفترة سوف يتم التركيز على المادة المجموعة خلال الفترة من جراء المقابلات عن بنيات علم النفس. وسوف يتم التركيز على تأسيس هياكل وبنيات علم النفس في الولايات خارج الخرطوم. وربما تكون من التطورات الكبري لعلم النفس خلال التسعينيات بداية تدشين علم النفس في غرب السودان فقد تم انشاء قسم العلوم التربوية والنفسية بجامعة الفاشر عام 1990. وفي عام 1992 تم انشاء قسم علم النفس بكلية التربية بجامعة كردفان بالدلنج والتي تطورت فيما بعد إلى جامعة الدلنج. وفي عام 1996 تم تجفيف القسم وتوقف وكان نظام الدراسة المتبع هو النظام الفصلي. ومن أكبر تطورات مشهد علم النفس أنه في عام 1995 تم ترفيع كلية الأحفاد الجامعة إلى جامعة الأحفاد للبنات والتي بها مدرسة كاملة لعلم النفس خلافا لبقية الجامعات السودانية الحكومية والخاصة منها والتي بها أقسام لعلم النفس أو جزء من أقسام لعلم النفس فيما يسمى بقسم العلوم التربوية والنفسية. وتشكل خريجات مدرسة علم النفس ورياض الأطفال الغالبية ضمن طلاب الدراسات العليا داخل وخارج السودان في مجال علم النفس وتطبيقاته المختلفة.

وذكرت سعاد أحمد (2004) عميدة المدرسة أن جامعة الأحفاد قامت بإدخال علم النفس الإرشادي عام 1996 حيث تخرجت أول دفعة في عام 1998. كما تم افتتاح مركز متخصص في العلاج النفسي والإرشاد بالخرطوم في عام 1997 . وأوضحت أن خريجات علم النفس من جامعة الأحفاد منخرطين في العديد من المؤسسات والوزارات الحكومية مثل وزارة الصحة، التعليم، الرعاية الاجتماعية. وفقا لعبد الرحيم (2007) أنه في عام 1996 تم انشاء قسم علم النفس بالنسبة للطالبات بجامعة أم درمان الاسلامية. وفي بداية التسعينيات عمل عباس حسين ، الذي نال الدكتوارة من بريطانيا، رئيسا لقسم علم النفس بكلية الاداب جامعة الخرطوم في تخصصه الرفيع في علم النفس التنظيمي ربما كأول سوداني في المجال وفيما بعد اغترب للعمل في ماليزيا والسعودية وقطر وأصبح خبيرا عالميا في مجال تخصصه ولكنه ترك مهنة تدريس علم النفس للمهام الاستشارية والتدريبية في مجال التنمية البشرية في المؤسسات التي عمل بها وحقق سمعة ممتازة في مجال تخصصه. كما عاد في بداية التسعينيات كذلك محمد صلاح خليل بعد تخصصه الرفيع في علم النفس المعرفي- عصبي بجامعة نيوكاسل ببريطانيا وربما كأول سوداني يتخصص في المجال للعمل رئيسا لقسم علم النفس بكلية الآداب جامعة الخرطوم حتى بداية انتدابه للعمل بالسعودية والتي حقق فيها سمعة ممتازة في عمله بالتدريس والاشراف والاستشارة بكلية الطب وليس بكلية الاداب.

في عام 1998 تم انشاء قسم علم النفس بكلية ود مدني الأهلية وربما كثاني كلية أهلية في المجال بعد جامعة الأحفاد ولكن يلاحظ بأن القسم يعتمد على الأساتذة المتعاونين وكان معظمهم من قسم علم النفس الصحي وقسم علم النفس التربوي بجامعة الجزيرة. ولا يوجد رئيس للقسم وإنما تعتمد إدارته على منسق وهو في درجة محاضر كما يمنح القسم درجة البكالوريوس في علم النفس ولا توجد برامج دراسات عليا بالقسم (عبد الرحمن ،2006). ومن التطورات البارزة لعلم النفس خلال التسعينيات أدراج تدريس علم النفس بجامعة النيلين بكلية الآداب عام 1998، وبعد سنة واحدة 1999 أنشأ قسم علم النفس في جامعة النيلين (الكردي، 2005). ويمنح القسم درجة البكالريوس ودرجة الدبلوم العالي في مجال علم النفس لذوي الاحتياجات الخاصة بنظام المقررات بالإضافة إلى درجة الماجستير والدكتوراه بنظام البحث (الجيلي، 2005). ومن بين تطورات علم النفس في الثمانينيات انشاء قسم علم النفس الصحي بجامعة الجزيرة والذي ينتمي إلى كلية العلوم الطبية التطبيقية التي أنشئت في عام 1998. ويقدم القسم بالإضافة إلى برنامج البكالوريوس والدراسات العليا برنامج التعليم المستمر والذي يستهدف الكوادر المختلفة العاملة في أنشطة الصحة النفسية (الجيلي، 2006). وتدرس بالقسم فتحية عمر التي أجرت رسالتها للماجستير بجامعة الخرطوم عن الزار كوسيلة علاجية كالسيكودراما. وكانت فتحية من خريجات الدفعة الثانية بقسم علم النفس بجامعة الخرطوم ومن الناشطات في مجالات علم النفس المختلفة. وفي جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا بدأ تدريس علم النفس كمادة في مواد كلية التربية، ولكن في عام 1999 تم إنشاء قسم مستقل لعلم النفس بكلية التربية وبدأ بخمسة وأربعين طالبا كدفعة أولى. ويمنح القسم دبلوم عالي في الصحة النفسية وماجستير في الإرشاد النفسي كما يوجد معمل لعلم النفس بالقسم يقوم بتدريب طلاب علم النفس فضلا عن تدريب الأطفال في برنامج اليوسيماس للحساب الذهني في مجال علم النفس المعرفي التطبيقي ويعزز البرامج بصورة خاصة القدرات العقلية في نصف الدماغ الايمن خاصة الخيال والابداع والتآزر البصري الحركي. حتى هذه النقطة ربما يكون حافزا لنا التوقف في عرض علم النفس في حقب التسعينيات حتى ننظر للخلاصات العامة لمشهد علم النفس في نهاية الألفية في السودان.

خلاصـــــــــــــة

ترتبط النظرية الشخصانية بوجود علماء نفس مؤثرين يقومون بتطوير مشهد علم النفس ويعجلونه، ولقد رمزنا لحقب معينة من حقب تطور مشهد علم النفس بشخصيات أو رموز محددة. فعلى سبيل المثال ، كان ودضيف رمزا لعلم النفس الفلكلوري في ماضي علم النفس، وسكوت لعلم

النفس في حقب الخمسينيات، وباعشر في الستينيات، وبدري في السبعينيات، وطه في الثمانينيات بينما لم نقدم رمزا في التسعينيات فتم الاكتفاء بقراءة مشهد علم النفس العام من خلال تطور بعض بنياته وهياكله. ومن الملاحظ بأن الثلاثة الأوائل من هذه الرموز ليسوا علماء نفس بالمعني الحرفي للمصطلح ولكنهم تركوا تأثيرا كبيرا في ماضي وتاريخ علم النفس. ويمكن مقاربة موقفهم بموقف هلمهولتز في البصريات التشريحية وموقف فخنر في السيكوفيزياء في ألمانيا فإنهم ليسا عالما نفس بالمعنى الحرفي ولكنهما مهدا لعلم النفس الذي أعلنه فونت في معمله بمدينة لا بيزج. وقد تدرب فونت قبل ذلك في معمليهما (الخليفة، 2001). أما مساهمة بدري وطه كعالمي نفس بالمعنى الحرفي في السبعينيات والثمانينيات فتتنظر سنوات لبروز عقليات كبيرة أو تيارات قوية لأخذها وتطويرها وتجاوزها. وإذا تم النظر لمشهد علم النفس من خلال فترت قصيرة من الزمن يمكن القول بأن هناك انقطاع ما بين مساهمة الحضارة السنارية في مرحلة ماضي علم النفس ومساهمة سكوت في الخمسينيات من القرن العشرين. بينما هناك تواصل ما بين مساهمة باعشر في الستينيات وبدري الذي تدرب معه في السبيعينيات ومساهمة طه في الثمانينيات. ولكن يعتبر تقدم أو تطور مشهد علم النفس متواصلا في حالة النظر إليه بصورة واسعة.

ولتقريب فهم النظرية الطبيعية والنظرية الشخصانية التي ذكرناها في مقدمة الدراسة يمكننا التساؤل هل أوجد ود ضيف الله منهجة البيوغرافي في دراسة السير الذاتية لأولياء الله الصالحين الذين اشتهروا بالكرامات والمعجزات في ابراء المرضى أم أن السلطنة السنارية في قمة ازدهارها هي التي هيأت البيئة الطبيعة المناسبة لود ضيف الله لكتابة الطبقات؟ وبذات القدر هل أوجد سكوت اختباراته لذكاء الأطفال في السودان أم أن البيئة الثقافية والاجتماعية والثقافية في فترة الأربعينيات والخمسينيات ماقبل الاستقلال هي التي هيأت التربة الخصبة لسكوت في تطوير الاختبارات السيكولوجية لقياس الذكاء؟ وبذات المنحى يمكن التساؤل هل أوجد بدري كتاب "المعضلة" وكتاب "النكية" وأوجد طه منهجة التفكيكي في تشريح التراث العربي الاسلامي أم أن روح العصر في السودان بصورة خاصة هي التي دفعت بدري وطه لمساهمتيهما العظيمة. ربما يصعب علينا تحديد أيهما السبب من النتيجة أو السبب من العرض، إن الكثير من هذه العلاقات ربما تكون دائرية. ومن خلال النظرية الطبيعية يمكن وصف مشهد علم النفس في الخمسينيات بمرحلة التهيئة، وفي الستينيات بالاستقبال، وفي السبعينيات بالتأسيس، وفي الثمانينيات ببناء الهياكل، وفي التسعينيات بتأسيس علم النفس في الولايات.

من خلال العرض السابق لمشهد علم النفس من خلال النظرية الطبيعية والشخصانية يمكن القول بأن هناك اتجاهين لنمو وتطور علم النفس في السودان. ففي ماضي علم النفس فإن الاتجاهين الأكثر بروزا هما ابراء المرضي (العلاج النفسي) والتربية في الخلاوي (علم النفس التربوي). ويمكن النظر لملامح علم النفس من خلال الحالات المدونة بأنها عبارة عن اعتقادات أو تخمينات أكثر من كونها اثبابات أو شواهد علمية. ويمكن القول بأن مفاهيم ونظريات ومناهج العلاج التقليدي ربما تكون خاطئة ولكنها صحيحة لدعم البحث والتفكير العلمي ، إنها صحيحة في تحديد المرض النفسي أو العقلي في الرأس أو الدماغ أو الطايوك ولكنها ربما تكون خاطئة في التفاصيل. ويبدو أن هذه الممارسات العلاجية الشعبية سوف تلعب دورها الغامض كسبب وعرض لروح العصر من خلال استلهام التراث الشعبي وتنشيط البحث السيكولوجي في ماضي وتاريخ علم النفس. وفي تاريخ علم النفس الحديث فإن أكثر اتجاهين برزا كذلك هما بدون شك علم النفس العلاجي وعلم النفس التربوي من جهة كما في مساهمة باعشر وتأسيس مستشفى التجاني الماحي، وعلم النفس التربوي في بخت الرضا والقياس النفسي المرتبط به كما في مساهمة سكوت. ولهذا السبب يمكن القول بأن علم النفس في ماضيه بدأ كعلم علاجي وتربوي وفي تاريخه كعلم تربوي وعلاجي وليست هناك أي استثناءات ولو قليلة في التجريب ترق كتيار في علم النفس.

ويمكننا القول بأن علماء النفس الأوائل في السودان رحبوا بعلم النفس العلاجي وعلم النفس التربوي كعلم نفس "رخو" أكثر من ترحيبهم بعلم النفس البيولوجي وعلم النفس التجريبي كعلم نفس "صلب". وبوسعنا التساؤل هل ما تم ذكره من قبل ود ضيف الله وكاتب الشونة له استمرارية في واقع علاج الفقراء في سودان اليوم؟ وبعد مضيء أكثر من ثلاثة قرون مازال يردد البعض من المعالجين التقليديين صدي ودضيف الله. وبعبارة ثانية هل تمتد جذور العلاج الشعبي للممارسات السائدة في السلطنة السنارية التي دونت فيها أول المحاولات العلاجية؟ وهل مازلت ملاحظات سكوت عن واقع علم النفس التربوي والقياس النفسي قائمة لليوم بعد مرور حوالي 60 سنة من أول محاولة قياس للذكاء عام 1948؟ وهل صحيح بأن الاختبارات الأجنبية اللفظية المترجمة حتى مع عمليات التكييف التي تتم لها هي غير صادقة وغير ثابتة في السودان؟ وهل درجة الأمية العامة بالنسبة للسكان فضلا عن عدم مطابقة اللغة المكتوبة والمتحدثة هي من أكثر الصعوبات التي تواجه حركة القياس النفسي في السودان؟ وهل صحيح أن الأطفال في السودان وفقا لتوصيات سكوت يحتاجون لمزيد من التهيئة النفسية ومزيد من التوضيح ومزيد من التمارين ومزيد من الزمن لإكمال الاختبارات السيكولوجية أكثر مما يحتاجه الأطفال في بريطانيا؟

بوسعنا التساؤل كذلك ما هو درجة تأثير مقدمات علم النفس العلاجي وعلم النفس التربوي في مرحلة ماضي علم النفس (السلطنة السنارية) ومرحلة علم النفس الحديث (حقب الخمسينيات) على مستقبل مشهد علم النفس في السودان؟ وبصورة أكثر تحديدا ما هي درجة تأثير هذه المقدمات على نوعية المقررات السيكولوجية التي تدرس بأقسام علم النفس بالجامعات السودانية في مستوى البكالريوس والدراسات العليا؟ وما هي درجة تأثير هذه المقدمات في موضوعات أطروحات الماجستير والدكتوارة والدراسات المنشورة بواسطة علماء النفس في السودان؟ وماهي طبيعة العلاقة بين واقع هياكل علم النفس وبين هذه المقدمات؟ وهل القيم والأخلاقيات العالية التي تميز بها "السوابق" في عملية تدوينهم ودراساتهم وممارساتهم كانت لها تأثيرات على قيم وأخلاقيات "اللواحق"؟ وهل هناك علاقة قوية بين تاريخ علم النفس في نهاية الألفية وتاريخ علم النفس في بداية الألفية؟ وهل لهذا المشهد قدرة الدفع الكافية لبروز تيارات جديدة في علم النفس ؟

المراجع

- أبوحطب، فؤاد (1977). بحوث في تقنين الاختبارات النفسية. المجلد الأول. القاهرة: مكتبة الآنجلو المصرية.
- أبو علي، أحمد بن الحاج (2009). مخطوطة كاتب الشونة في تاريخ السلطنة السنارية والادارة المصرية. الخرطوم: الدار السودانية للكتب.
- أحمد، سعاد موسى. (2004). الإرشاد النفسي وأهمية الترويج له. مؤتمر الترويج لأهمية علم النفس التطبيقي وتشغيل خريجي علم النفس، الخرطوم، قاعة الشهيد الزبير.
- باب الله، خالد (2004). خصائص المعالجين الشعبيين و القيادات المحلية في مساعدة ضحايا الحرب من معاقي الألغام و المتأثرين بالصدمات النفسية، بحث غير منشور، المركز القومي للبحوث، الخرطوم.

- بدري، حرم الصادق (2006). مقابلة شخصية جامعة الأحفاد للبنات، فبراير 2006.
- بدري، مالك (1966) . سيكولوجية رسوم الأطفال. اختبار رسم الإنسان وتطبيقاتها على أطفال البلاد العربية. بيروت : دار الفتح للطباعة والنشر .
- بدري، مالك (1987). مشكل أخصائي النفس المسلمين. ترجمة منى كنتباي أبو قرجة. الخرطوم: شركة الفارابي.
- البشير، مها (1992). تعديل مقياس استنافورد. بينية لذكاء الأطفال بما يتناسب مع البيئة السودانية. رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم، الخرطوم.
- الجيلي، أسامة (2005). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة النيلين، الخرطوم، 30 ديسمبر 2005.
- الجيلي، ضياء الدين (2006). مقابلة شخصية، قسم علم النفس الصحي، جامعة الجزيرة، ودمدني، 18 سبتمبر 2006.
- حسن، يوسف (1992). مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الطبقات. محمد النور بن ضيف الله . كتاب الطبقات. حققه وعلق عليه يوسف فضل حسن. الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر.
- حسين، محمد عبد المجيد. (1988). الاقتباس والتقنين السوداني لمقياس وكسلر لذكاء الأطفال المعدل (WISC- R)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم، الخرطوم.
- الخليفة، عمر هارون (1987). الاقتباس والتقنين السوداني لمقياس وكسلر لذكاء الراشدين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم، الخرطوم.
- الخليفة، عمر هارون (2001). علم النفس التجريبي في التراث العربي الإسلامي. الطبعة الأولى. بيروت . المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الخليفة، عمر هارون (2003). مالك بدري رائد عملية توطين علم النفس في العالم العربي. دراسات نفسية (2)، 120-137.
- الخليفة، عمر هارون (2006). الزبير بشير طه رائد تشريح النصوص السيكولوجية في التراث العربي الإسلامي . مجلة الجزيرة للعلوم التربوية و الإنسانية ، (3) ،76-105 .
- الخليفة، عمر هارون (2009). توطين علم النفس في العالم العربي. عمان: دار الفكر.
- الخليفة، عمر .، حامد، علاء الدين (2008). www.arabpsynet.com/BaasharCondolence.pdf
- دليل جامعة الأحفاد (2003)، جامعة الأحفاد، أمدرمان.
- دليل جامعة الفاشر . (2003- 2004) . شركة البركات الخيرية للتنمية والاستثمار . الخرطوم : دار جامعة القرآن الكريم للطباعة .
- دوليب، تاج السر (2002). تطور مفهوم وممارسة التوجيه والإرشاد النفسي في المدارس والجامعات في السودان، المؤتمر القومي للصحة النفسية المنعقد بقاعة الشارقة، الخرطوم.
- رأفت، محمد (1968). تقنين اختبار رسم الرجل على البيئة الكويتية. الكويت: التقرير السنوي لمكتب الخدمة الاجتماعية، وزارة التربية.
- سليمان، أحمد (2006). مقابلة شخصية كلية التربية جامعة جوبا، الخرطوم، مايو 2006م.
- شنان، احمد محمد الحسن (2005) .علم النفس و الدبلوماسية. ورقة مقدمة للمؤتمر الثاني للجمعية النفسية السودانية، قاعة الشارقة، الخرطوم.
- شنان، احمد محمد الحسن (2008). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة الخرطوم ، الخرطوم.
- طه، الزبير (1995). علم النفس في التراث العربي الإسلامي. الخرطوم: دار جامعة الخرطوم للنشر.
- عبد الله، حسين (2006). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، أغسطس 2006.
- عبد الرحمن، اخلاص محمد (2006). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، كلية ود مدني الأهلية، ودمدني.
- عبد الرحيم، إبراهيم (2007). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان، أبريل 2007م.
- غنيمة، محمد متولي (1976). تقنين اختبار رسم الرجل بالنسبة لتلاميذ المرحلة الابتدائية في مصر. رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة عين شمس، القاهرة.
- فرح، علي (2009). رسالة الكترونية، 5 أكتوبر 2009.
- فهمي، مصطفي (د.ت). اختبار رسم الرجل: تطبيقه وتقنينه على بيئة ريفية مصرية. القاهرة: دار مصر للطباعة.
- كردمان، صلاح وقيع الله (2003). مساهمات بعض الباحثين السودانيين في مجال علم النفس (مدرسة الخرطوم). رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم درمان الإسلامية، أم درمان.
- الكردي، خالد (2005). مقابلة شخصية، قسم علم النفس، جامعة النيلين، الخرطوم، 3 أبريل 2005.
- محمود، ابتسام. (2002). الاحتياجات التدريبية للأخصائيين النفسيين العاملين في أقسام الأمراض النفسية والعصبية في السودان. دراسات نفسية ،1، 103-120.
- المركز القومي للأبحاث التربوية (1979). دراسة تحليلية لاختبارات سكوت لقياس الذكاء السوداني. البحوث التربوية، 3، 14-22.
- ود ضيف الله، محمد النور بن ضيف الله (1992). كتاب الطبقات.حققه وعلق عليه يوسف فضل حسن. الخرطوم: دار التأليف والترجمة والنشر.

- Dennis, W. (1957). Performance of near eastern children on the Draw-a-Man test. Child Development, 28, 427-430.
- Khaleefa, O., & Ashria, I. (1995). Intelligence testing in an Afro-Arab Islamic culture. Journal of Islamic Studies, 6, 222-233.
- Khaleefa, O., Abdelwahid, S., Abdulradi, F., Lynn, R. (2008). The increase of intelligence in Sudan 1964-2006. Personality and Individual Differences, 45, 412-413.
- Fahmy, M. (1964). Initial exploring of the intelligence of Shilluk children. Vita Humana, 7, 164-177.
- Lynn, R., & Vanhanen, T. (2002). IQ and the wealth of nations. Westport: Praeger.
- Scott, G. (1950). Measuring Sudanese intelligence. The British Journal of Educational Psychology, XX, 43-54.
- Badri, M. (1964). Drawing a man in Sudan. Journal of Psychology, Vol. XI. No 5.
- Badri, M. (1965a). The use of finger drawing in measuring the Goodenough quotient of culturally deprived Sudanese children. Journal of Psychology, 59, 333-334.
- Badri, M. (1965b). Influence of modernization on Goodenough quotient of Sudanese children. Perceptual and Motor Skills, 20, 931-932.
- Badri. M. (2000). The Aids crisis: A natural product of modernity's sexual revolution. Kuala Lumpur: Medeena Books.
- Badri, M., & Dennis, W. (1964). Human fingure drawings in relation to modernization in Sudan. Journal of Psychology, 58, 421-425.
- Boring, E. (1957). A history of experimental psychology. New York: Appleton-Century Crofts.

البقـــــاء للـــــــه وحـــــــده

السلام عليكـم ورحمة الله وبركاته،،،

إنا لله و إنا إليه راجعون

بمزيد الاسى و الحزن تنعى أسرة شبكة العلوم النفسية العربية و هيئتها العلمية الإستشارية

البروفسور فؤاد توفيق انطون

الرئيس الاسبق لجمعية الاطباء النفسيين في لبنان

ممثل منظمة الصحة النفسية العالمية

عضو البورد العربي للطب النفسي

استاذ الطب النفسي سابقا في الجامعة الاميركية

إنّا بفقده ننفتقد رجل علـم ساهـم في رفع مستوى الطب النفسي في الشرق الاوسط والبلاد العربية.

نتقدم بخاص التعازي إلى زوجته و أبناءه و كافة أفراد عائلته سائلين الله ان يتغمده برحمته ويلهم اهله جميل الصبر والسلوان و إنا لله و إنا إليه راجعون.

الدكتور جمال التركي

رئيس شبكة العلوم النفسية العربية